ليلى مبروك

رحلة إلى عالم الخلود

عدالة يوم القيامة

المختار الإسلامي
للطبع والنشر والتوزيع
١٦ شارع كامل صدقي بالفجالة
القاهرة ت ٩١١٣٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

بســم الله الرحمن الرحيم

﴿ يومَ هم بارزونَ لا يَخْفَى على اللهِ منهم شئٌ لمنِ المُلْكُ اليومَ ؟! للهِ الواحِدِ القهارِ ، اليومَ تُجزَى كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ .. لا ظُلْمَ اليومَ إنَّ اللهَ سريعُ الحسابِ ﴾ . (غافر : ١٦ ، ١٧)

﴿ ياقومِ إنما هذه الحياةُ الدنيا متاعٌ وإن الآخرةَ هى دارُ القرارِ ﴾[1]

رحلة إلى عالم الخلود

وبدأنا الرحلة .. بدأناها معاً صديقى القارىء بكتيب « رحلة مع الروح فى العالم الآخر » .. أشرنا فى الكتيب إلى الساعة الصغرى .. ساعة احتضار الإنسان كفرد .. لحظة انفصال الروح عن جسدها .. وانتقلنا مع الروح .. إنتقلنا معها إلى عالم آخر :

كيف تلتقى مع سائر الأرواح ؟ كيف ترى وتسمع وتتكلم بمقاييس العالم الآخر ؟ كيف تستطيع الاتصال بجسدها فى العالم الأرضى وتشعر معه بالنعيم أو العذاب ؟ وقد ترجم ذلك الكتيب إلى اللغة الانجليزية فى لندن وطبعت منه أكثر من طبعة باللغة العربية .

وانتقلنا إلى الجزء الثانى من الرحلة فى كتاب علامات الساعة الصغرى والكبرى .. ناقشنا موضوعات عديدة كلها تدور حول الساعة الكبرى وهى لحظة احتضار الدنيا ككل إيذاناً برحيلنا إلى عالم آخر جديد .. أشرنا إلى العلامات الصغرى والعلامات الكبرى للساعة الكبرى .. منها علامات ظهرت وانتهت ، وأخرى ظهرت ومازالت وستستمر إلى آخر الزمان .. منها علامات كبرى دالة على اقتراب الساعة ، وأخرى دالة على قيام الساعة .. تساءلنا :

---

(١) غافر : ٣٩ .

كيف كان الكون قبل خلقه ؟ وكيف يفنى فى نهاية الزمان ؟ تأملنا فى الكون من عدة زوايا .. فكرنا فى البصيرة العلمية الواردة بالقرآن أولاً ثم نتائج مجهودات علماء الدنيا تبعاً لما ورد فى القرآن العظيم .. عشنا معاً أخى القارئ ساعة النفخ فى الصور .. فكانت النفخة الأولى التى بدأت بفزع المخلوقات وانتهت بصعقهم .. صُعِقَ ما ومن فى السماوات والأرض .

﴿ إن كانت إلا صَيْحَةً واحدةً فإذا هم خامدونَ ﴾[٢] .. وانطبقت السماء على الأرض .. لم يبقَ إلا الله الواحد القهار الذى كان منذ الأزل .. ومازال .. وسيبقى إلى الأبد .. **﴿ ولا تَدْعُ مع اللهِ إلهاً آخرَ لا إلهَ إلا هو كلُ شئٍ هالكٌ إلا وجهَهُ له الحُكْمُ وإليه تُرْجَعونَ ﴾**[٣] .

وها هو ذا كتابنا الثالث .. عدالة يوم القيامة الذى يبدأ بالنفخة الثانية فى الصور .. ألا وهى نفخة البعث .. حيث تبعث البشرية من جديد فى عالم آخر يختلف تماما عن عالمنا الدنيوى المحدود .. تبعث كل المخلوقات لتنتقل روحا وجسداً من عالم الدنيا الفانى إلى عالم الآخرة الباقى .. وينصب الميزان .. فتسود العدالة .. بل تسود الرحمة الإلهية العظيمة التى سبقت العدل .. قال عز وجل :

﴿ قُل لمن ما فى السماواتِ والأرضِ قل للهِ كتب على نفسِهِ الرحمةَ لَيَجْمَعَنَّكِمْ إلى يومِ القيامةِ لا ريبَ فيه الذين خسِرُوا أنفسَهُمْ فهم لا يؤمنونَ ﴾[٤] .

ويبدأ الحساب .. فتستبعد عناصر الشر البغيضة إلى نار الجحيم ..

---

(٢) يس : ٢٩ ، صيحة واحدة : صوتاً مهلكاً من السماء ، خامدون : ميتون . كما تخْمُدُ النار .

(٣) القصص : ٨٨ .

(٤) الأنعام : ١٢ ، كتب : قضى وأوجب تَفَضُّلاً وإحساناً . خسروا أنفسهم : أهلكوها وغبنوها بالكفر .

وتفوز قوى الخير العظيمة بجنة النعيم .. هكذا ينتهى يوم القيامة .. يوم الحساب .. فيكون الجزاء .

وهذا هو موضوع كتابنا الرابع بإذن الله تعالى .. أو قل الجزء الرابع والأخير من سلسلة رحلة إلى عالم الخلود التى نختتمها بدار الجزاء .. لو قدَّرنى عز وجل لصحبتك أخى الإنسان لنستكمل رحلتنا سوياً فى نعيم الجنان مع إلقاء نظرة على جحيم النيران .. ترى ! هل يسمح لنا رب العزة ؟

عزيزى القارئ : لك أن تقرأ كل كتاب من السلسلة ككتاب مستقل بذاته .. وفى استطاعتك أن تقرأه كجزء من سلسلة رحلة إلى عالم الخلود .. إقرأ كيفما تشاء .. المهم أن تعلم .. لتستعد .. فتعمل كى تنجو من عذاب الآخرة وتظفر بنعيمها الأبدى .

ولتعلم علم اليقين أن عالم الآخرة بكل دقائقه وتفصيلاته وترتيب أحداثه لا يعلمه إلا الله .. أما ما أكتبه فلا يمثل سوى ملامح صغيرة على هامش ذلك العالم العظيم .. تلك الملامح هى الحدود التى سمح لنا عز وجل بمعرفتها فأوردها بكتابه العزيز وعلى لسان نبيه الكريم فأصبحت علماً واجباً على كل إنسان .. وها أنا أرجع إلى القرآن الكريم الذى لا جدال فيه .. وإلى الأحاديث الشريفة مع محاولة تحرى الدقة فى انتقاء الصحيح منها .. كما أرجع إلى تفسيرات أهل الثقة من كبار العلماء من خلال كتب التراث والكتب المعاصرة مع المقارنة والتوفيق بين تفسيرات العلماء فى العصور المختلفة للوصول إلى أنسب تفسير لآيات الله تعالى وأحاديث رسول الله ﷺ .. وفى النهاية أحاول عرض تلك المعلومات بأسلوب يتناسب مع عامة الناس .. وأدعو الله بالتوفيق إلى كل ما فيه خير يرضيه والبعد عن كل ما يشوبه شر يغضبه .

﴿ فلا تحسَبَنَّ الله مُخلفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إنَّ اللهَ عزيزٌ ذو انتقام ، يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمٰواتُ وبرزوا للهِ الواحدِ القهارِ ، وَتَرَى المجرمينَ

يومئذٍ مُقَرَّنِينَ فى الأصفادِ ، سرابيلُهُم من قَطِرَانٍ وتغشى وجوهَهُمُ النارُ ، لِيَجْزِىَ اللهُ كلَّ نفسٍ ما كَسَبَتْ إنَّ اللهَ سريعُ الحسابِ ، هذا بلاغٌ للناسِ ولينذروا به وليعلموا أنما هو إلهٌ واحدٌ وليَذَّكرَ أولوا الألبابِ ﴾[٥] .

---

(٥) إبراهيم – ٤٧ : ٥٢ برزوا لله : خرجوا من القبور للحساب . مقرنين : مقروناً بعضهم مع بعض . الأصفاد : القيود أو الأغلال . سرابيلهم : قمصانهم أو ثيابهم . تغشى وجوههم : تغطيها وتجللها . بلاغ للناس : كفاية فى العظة والتذكير .

﴿ أَرَضِيتُم بالحياةِ الدنيا من الآخرةِ ! فما متاعُ الحياةِ الدنيا فى الآخرةِ إلا قليلٌ ﴾[٦]

الدنيا نبذة من عالم الآخرة[٧]

أنت لغز محير أيها الإنسان ! حقيقة أنت لغز محير ! حين تبتسم لك الدنيا تتصور أنها لك وحدك وأنها عالم واسع كبير والعمر مازال أمامك طويل .. تخالها وكأنها جنة النعيم فيصير شغلك الشاغل هو الاستمتاع بنعيمها بقدر ما تستطيع .. وتحاول النسيان .. تتناسى الآخرة .. مُدَّعيا التفاؤل والبعد عن التشاؤم .. فتهرب من مجرد التفكير فى يوم القيامة لأنه يمثل لك الأهوال والفزع والرعب .

أما حين تبكيك الدنيا تشعر وكأنها ضاقت بك .. تخالها وكأنها نار الجحيم .. فتجزع .. وقد يودى ذلك بك إلى الخلاص منها ولو بالانتحار .. وتجهل يا مسكين ما بعد الانتحار .. لا تعلم أنك تهرب من عذاب وقتى طفيف لتفاجأ بما ينتظرك من عذاب أبدى أليم .

لست أدرى لماذا سيطر عليك هذا الإحساس بالتشاؤم والانقباض من فكرة الموت والعالم الآخر حتى أنك ظلمت الآخرة واتهمتها بأنها عالم الوهم بدعوى أن الدنيا هى عالم الواقع ! ظلمتها وقلت انها أهوال وأن هموم الدنيا أهم

---

(٦) التوبة – جزء من آية ٣٨ .

(٧) عن ابن مسعود قال : قال الرسول ﷺ : « ما لى وللدنيا ؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » . (أخرجه الترمذى وصححه) .

من همومها .. ادّعيت أن كل من يفكر فيها يصاب بالاكتئاب والمرض واليأس .. ﴿ **بل تُؤثِرُونَ الحياةَ الدنيا ، والآخرةُ خيرٌ وأبقىٰ** ﴾[8] .

وإنى لأتساءل : لِمَ لا ننظر إلى الجانب المضئ من فكرة الموت والعالم الآخر ؟! أليس بالقبر نعيم كما به عذاب ! ألا يوجد فى يوم القيامة رحمة وعدل وإنصاف كما يوجد به فزع وقهر وأهوال !

فى يوم القيامة تسود الرحمة أولاً .. ثم العدل .. وأخيراً القهر لمن عصى أو كفر . ألا نردد يوميا عند كل صلاة وقبل كل سورة بالقرآن : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ ! لو أمعنا التفكير فى كلمتى الرحمن الرحيم لوجدنا أنه تتجلى فيهما صفة الرحمة بأعمق وأرق معانيها كأبرز صفة من صفاته عز وجل ، وتكررت تلك الصفة الكريمة فى أكثر من سورة وعلى رأسها فاتحة الكتاب : ﴿ **الحمدُ لله ربّ العالمينَ ، الرحمنِ الرحيم ، مالِكِ يومِ الدينِ** ﴾[9] فكيف إذن بعد هذا نسئ الظن بيوم الدين ! وهو يوم القيامة الذى يملكه رب العالمين وأرحم الراحمين ! الرحمن الرحيم ! كيف نسئ الظن بالله سبحانه وتعالى وقد قال فى حديث قدسى : « **أنا عند ظن عبدى بى ..** »[10] .. لِمَ لا نحسن الظن بالله الذى وسعت رحمته كل شئ حتى أنها سبقت عدله :
﴿ **مَن جاءَ بالحسنة فله عَشْرُ أمثالِهَا ومَن جاءَ بالسيئةِ فلا يُجْزَىٰ إلا مثلَهَا وهم لا يُظْلَمُونَ** ﴾[11] .. ﴿ **إنَّ الله لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذرةٍ وإن تكُ حسنةً يضاعِفْهَا ويؤتِ من لَّدُنْهُ أجراً عظيماً** ﴾[12] .

---

(٨) الأعلى : ١٦ ، ١٧ .
(٩) الفاتحة : من أولها إلى آية ٤ . رب العالمين : مربيهم ومالكهم ومدبر أمورهم . يوم الدين : يوم الجزاء . يوم القيامة .
(١٠) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة بطرق متعددة .
(١١) الأنعام : ١٦٠ .
(١٢) النساء : ٤٠ . مثقال ذرة : مقدار أصغر شئ (نملة مثلاً أو هباءة) .

وإن كانت الرحمة تسبق العدل فمن الأولى أن تسبق الغضب والقهر .. ففى حديث قدسى أخرجه البخارى : لما قضى الله الخلق ، كتب عنده فوق عرشه : « **إن رحمتى سبقت غضبى** »[١٣] .

إن حمل أهوال وهموم الدنيا أو الآخرة لا يودى إلا إلى اليأس والتخاذل فى الدنيا والآخرة معاً أما لو تفكرنا فى آيات الله تعالى لاستبدلنا هذا الإحساس القاتل بمشاعر أخرى فياضة بالحب والتفاؤل للعالم الآخر وللدنيا تبعا له مما يؤدى تلقائياً إلى الصلاة والعمل الدائب فى الدنيا إلى كل ما يقرب من الله سبحانه وتعالى وكل ما فيه خير للدنيا والآخرة معاً .

وفى أول سورة بالقرآن بعد الفاتحة تطالعنا سورة البقرة فى أوائل آياتها بصفات المتقين وأولها الإيمان بالغيب ، وتتوالى الصفات حتى تصل إلى اليقين التام بالآخرة وهو أعلى درجات الإيمان : ﴿ **آلمّ ، ذلك الكتابُ لا ريبّ فيه هدىً للمتقينَ ، الذين يؤمنونَ بالغيبِ ويقيمونَ الصلاةَ ..** ﴾[١٤] إلى قوله تعالى : ﴿ **وبالآخرةِ هم يوقنونَ** ﴾ ولم يقل يؤمنون !

فالإيمان بالله وكتبه ورسله وملائكته وقضائه وقدره والعالم الآخر وما إلى ذلك من أمور الدنيا والآخرة التى تغيب عن عيوننا وتُدرج تحت اسم الغيب يجب أن تحتوينا وتسيطر على أفعالنا لتدفعنا إلى الاستمتاع بالدنيا وعمرانها للفوز بالآخرة .. ﴿ **وما هذه الحياةُ الدنيا إلا لهوٌ ولَعِبٌ وإنَّ الدارَ الآخرةَ لهى الحيوانُ لو كانوا يعلمونَ** ﴾[١٥] .

---

(١٣) أخرجه أيضا مسلم وابن ماجه بطرق مختلفة .

(١٤) ذلك الكتاب : القرآن العظيم . لا ريب فيه : لا شك فى أنه حق من عند الله . هُدىً : هادٍ من الضلالة .

(١٥) العنكبوت : ٦٤ . لهو ولعب : لذائذُ متقدمة ، وعبث باطل . لهى الحيوان : لهى دار الحياة الدائمة الخالدة .

الدنيا مزيج من أفراح وأحزان زائلة لا تمثل سوى لمحات من نعيم وعذاب الآخرة الباقية .. الدنيا سلم للوصول إلى دار القرار ، والآخرة أقرب إلينا من الدنيا ؛ فغداً فى الدنيا قد لا يأتى فيصير وهماً أما غدُ الآخرة فهو الحقيقة المؤكدة التى لا تقبل الجدل أو الاحتمال ، والتى تستحق السعى إليها ؛ ولا يتأتى ذلك إلا بالتعرف عليها ، ولكن فى حدود ما سمح به رب العزة فقط : من خلال ما ورد بالقرآن من آيات لا حصر لها فى هذا الصدد ، وما ورد عن النبى ﷺ ، ولا يعنى ذلك الزهد فى الدنيا والهجرة إلى الآخرة لأن المعيار الحقيقى للنجاح فى الدنيا والفوز بالآخرة هو العمل البناء فى الدنيا ، والاستمتاع بنعم الله فيها ، والصبر على بلاياها .

﴿ وابتغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبَكَ من الدنيا .. ﴾[(١٦)] .

هناك فرق بين العمل فى الدنيا للدنيا وبين العمل فى الدنيا للآخرة ؛ فالعمل من أجل الدنيا لا يتأتى إلا من خلال نظرة سطحية ضيقة تحصر الإنسان فى إطار دنياه المحدودة الخاصة به مما يؤدى إلى صراع البشر وتكالبهم على المادة والمنصب ، والإفراط فى الأحزان والأفراح ، وذلك يزودنا بصفات نحن فى غنى عنها كالحقد والنفاق .. الخ .

أما العمل من أجل الآخرة فيقتضى بصيرة متعمقة وعقلاً متفتحاً للدنيا والآخرة معاً مما يؤدى إلى التعاون والتكاتف للسعى وراء الخير حباً له وتفاؤلاً به ، كما يؤدى إلى التوازن والاعتدال فى الأفراح والأشجان ، وهذا بدوره يزودنا بصفات نحن فى أشد الحاجة إليها كالصدق والإخلاص فى العمل .. الخ .

صديقى القارئ : ضع الدنيا فى حجمها الطبيعى .. حلوها ومرها .. لا تضخم أمورها أكثر من اللازم .. لا تفرط فى مشاعرك ولا تلغيها .. لا تبالغ

(١٦) القصص : جزء من آية ٧٧ .

فى أحزانك وأفراحك .. بل افرح واحزن .. لكن بقدر .. واعلم أن الدنيا ليست جنة وليست ناراً .. إنما هى خليط مصغر محدود من سعادة الجنة وشقاء النار .. فى الدنيا ينال الطيب والخبيث قسطاً قليلاً من النعيم والعذاب معاً ، أما فى الآخرة فإن النعيم العظيم للطيب فقط والعذاب الشديد للخبيث .. عالم الدنيا نبذة من عالم الآخرة الواسع الرحب .[١٧]

الدنيا = (طيبة وخبث + حب وبُغض + ظلم وعدل + فقر وغِنَى + جمال وقبح + ...)

باختصار الدنيا مزيج من عوامل الخير والشر متضاربة ومتداخلة فى بعضها .. والحياة بفطرتها .. بكل ما فيها من جمال وجبت أصلاً للخير وإنما خلق معه الشر فى الدنيا ليكون بمثابة التربية والابتلاء للاختبار .. فالدنيا مدرسة للتربية والتعليم .. الدنيا لجنة امتحان .. من اجتازه بنجاح غدا من قوى الخير وفاز بنعيم الآخرة أما من فشل فقد أمسى من عناصر الشر وباء بالعذاب .. وبما أن الحياة وجبت أصلاً بالخير وللخير فإن قوى الخير العظيمة لا تستطيع الاستمتاع الكامل بالحياة الدنيا فى ظل صراع قوى الشر البغيضة .. بما أنها وجبت للخير فإنها باقية ببقائه ولا تفنى إلا بفنائه حيث لا تبقى إلا عناصر الشر لا تجد خيراً تصارعه فتصارع بعضها .. وتكون النهاية .. فتقوم الساعة .. تنتهى الحياة الدنيا الفانية إيذاناً بانتقال الحياة إلى عالم الآخرة .. فيكون البعث للحساب والجزاء .

الآخرة = (الطيبة + الحب + العدل + الغنى + الجمال +...) ^{2} – (الخبث + البغض + الظلم + الفقر + القبح +...) .

---

(١٧) فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١١ : أخرج مسلم والترمذى والنسائى من طريق قيس بن أبى حازم عن المستورد بن شداد رفعه : « والله ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم ، فلينظر بم يرجع » . القدر الذى يتعلق بالأصبع من ماء البحر لا يُذْكَر بالنسبة إلى البحر وكذلك الدنيا بالنسبة للآخرة . فالدنيا كالماء الذى يعلق فى الإصبع من البحر والآخرة كسائر البحر .

يوم القيامة هو يوم الحساب .. بالحساب الدقيق تسود العدالة .. والعدالة تقتضى فرز قوى الخير عن عناصر الشر .. فيكون الجزاء .. وبما أن الحياة وجبت أساساً بالخير وللخير يعيش أهل الخير .. أهل الطيبة والحب والعدل .. الخ حيث الغِنَى والجمال فى جنة النعيم .. ويهوى أهل الشر .. أهل الخبث والبغض والظلم .. الخ حيث الفقر والقبح والعذاب فى نار الجحيم .. هكذا تصير قوى الخير واضحة قوية مضاعفة .. منفصلة تماماً عن عناصر الشر فتستطيع الاستمتاع الكامل اللانهائى فى الحياة الآخرة بلا حدود بعيداً عن صراع الشر .. هكذا تبقى الحياة الآخرة ببقاء الخير إلى الأبد .. وتلك هى العدالة بعينها .

﴿ لِيَمِيزَ اللهُ الخبيثَ من الطيبِ ويجعلَ الخبيثَ بعضَهُ على بعضٍ فَيَرْكُمَهُ جميعاً فيجعلَهُ فى جَهَنَّمَ أولئك همُ الخاسرونَ ﴾[18] .

حكاية من واقع الحياة :

ويبقى تساؤل : ما مصير عناصر الخير المدنسة ببعض دنس الشر ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال .. إقرأ معى هذه الحكاية .. إقرأها كتجربة واقعية تترجم ما كتبت لك مسبقاً .. اعتبرها تجربة عامة فى إطار تجربة شخصية قد تحدث لعشرات من الناس .. هى حكاية مجموعة من الصديقات .. أنا واحدة منهن .. أرجو أن تعتبر أنا هى أنا (الإنسان) وليست أنا (ليلى مبروك) .. وكانت سامية (لك أن تتصور أن سامية أو غيرها من بطلات القصة هى س أو ص من الناس) .

كانت سامية زهرة المجموعة .. شعلة حيوية ونشاط .. إنسانة ذات مواقف نبيلة .. مولعة بحب الناس .. وحب الخير .. كان تفاؤلها وحبها للحياة

---

(١٨) الأنفال : ٣٧ . فَيَرْكُمَهُ جميعاً : فيجمعه مُلْقىً بعضُهُ على بعض .

بلا حدود .. إنسانة ودودة .. سلسة .. بسيطة فى معاملاتها .. لكم أحببت مداعباتها ومشاكساتها الطريفة .. أحببتها كثيراً .. كثيراً .

مرت الأيام .. وتبدلت الأحوال .. مرضت سامية .. مرضت وهى لم تزل محتفظة بنشاطها الدائب .. عجز الأطباء عن تشخيص حالتها .. بدأ يتسلل إليها إحساس بالخوف من الغد .. سيطرت عليها فكرة الموت كمعنى كئيب غامض .. كانت تقول : (رأيت فى منامى أنى سأموت) .. سمعت صوتها ممزوجا برنة أسى وحزن عميق .. لكنها سرعان ما كانت تعود إلى مداعباتها وضحكها المعهود مع خفة ظل بلا حدود .. لم تشعرنا يوماً أنها مريضة إلا من خلال كلمة تتفوه بها فى زحام الضحكات والمرح فأجمعنا جميعاً أنها واهمة .. وبعد فترة طويلة لزمت سامية الفراش .. وعجزت تماما عن الحركة بضعة أيام نقلت خلالها إلى المستشفى .

قبل النهاية بساعات معدودة .. عرف المرض .. وماتت سامية .. ماتت وهى فى ريعان شبابها وقمة نضارتها .. وماتت معها أجمل بسمة فى حياتى .. ضاقت بى الدنيا .. كرهتها .. لم أعد أحتمل الحياة بدون سامية .. تصورت أن دموعى لن تجف .. وأن حياتى قد توقفت .. فكرت فى الموت .. أمسيت أمقته وأخشى عالم الآخرة .. ومع ذلك تمنيته دون التفكير فى عواقب الآخرة .. يئست من الحياة .. واستغرقنى حزن عميق .. فقد جزعت .. بل جزعنا جميعاً .. شعرنا وكأن زهرة جميلة اختطفت فجأة من وسطنا .. وساد بيننا الوجوم .

دارت الأيام .. وعادت إلينا البسمة من جديد .. استسلمت للواقع .. للقدر المحتوم الأقوى من الإنسان .. وبدأت أمارس حياتى .. قررت أن أعقد معاهدة صلح مع الموت والعالم الآخر .. ومع القدر عامة .. فقرأت .. عرفت وكتبت .. كانت ليلى إحدى قارئاتى .. وصديقة حميمة من صديقات

مجموعتنا .. لم أنسَ يوم قرأت كتابى وقالت لى : (بالرغم من أنه كتاب عن الموت والعالم الآخر إلا أن أسلوبك جعلنى أقرأه بابتسامة !) الله ! ما أحلاه تعبير : (كتاب عن الموت .. أقرأه بابتسامة) !

تعبير مازال يراودنى وكأنه نغم ساحر .. بدر من حبيبة غالية .. إنسانة رقيقة .. وديعة .. تتسم بالهدوء ورجاحة العقل والاتزان .. كلها حب وحنان .. ومع ذلك فهى قليلة الكلام .. لا تعبر عن مشاعرها الراقية إلا بالمواقف النبيلة .. كانت ليلى كملاك بالمجموعة .

بعد عام ونصف تقريباً من موت سامية .. مرضت ليلى .. حارت بين الأطباء .. سافرت إلى الخارج .. ثم عادت وقد وقف الطب عاجزاً تماماً أمام مرضها .. لقد أصيبت بنفس مرض سامية الخبيث .. لكن بصورة أشد قسوة .. فقد نفذ إلى النخاع الشوكى .. التف حولها الأطباء .. وأحيطت بعناية طبية فائقة .. كانت ليلى تمارس مهنة الصيدلة .. فطلبت من أخيها الطبيب ألا يصرح لها باسم مرضها .. طلبت أيضاً تبديل علبة الدواء بأخرى قبل إعطائه إياها .. لم تكن لتريد أن تعرف اسم الدواء الذى قد يودى بها إلى معرفة المرض .. كثيراً ما كانت تردد : (أنا عندى أنيميا) .. أكانت حقاً لا تعلم حقيقة مرضها ؟ أم تُراها علمت لكنها أرادت لو تهرب من المواجهة حتى أمام نفسها ؟ أإلى هذا الحد يفزع الإنسان من فكرة الموت ؟!

طال المرض .. كانت آلامه فوق احتمال البشر .. وتحملتها ليلى .. تحملتها بكل شجاعة وصبر .. لم تبكِ .. ولم تشكُ يوما بالرغم من أنها عجزت تماماً عن الحركة .. أذكر يوم رأيتها وقد أخذ ظهرها وضعاً ثابتاً أليماً .. فلم تعد تستطيع الجلوس ولا تملك القدرة على الاسترخاء فى وضع النوم الطبيعى المريح .. بل كانت بَيْنَ بَيْنْ .. أما وجهها فقد بدا شاحباً متقلصاً من شدة الإعياء ، كما زحفت إليه هالات سوداء أحاطت بعينيها حتى كادت تملأ وجنتيها .. وفى غمرة الآلام التى كثيراً ما حاولت إخفائها لمحتُ عينيها

مغرورقتان بالدموع .. قالت تداعبنى بهدوئها المعهود والألم يعتصرها عصراً : (ألا تحبين أن أسمعك سيمفونية آه ؟!) .

وخرجت كلمة آه من أعماق أعماق القلب .. جعلتنى أقول فى نفسى آهٍ ثم آهٍ ألفَ مرة .. وخرجت أبكى من حجرتها كى أعود إليها أكثر تماسكاً .. لم تنفس ليلى عن آلامها المكبوتة إلا من خلال بضع كلمات معدودة : (آه .. يارب .. الحمد لله) .

وفى يوم خميس إجتمعت مجموعة الصديقات فى بيتها .. قرأنا لها القرآن الكريم .. ختمناه .. دعونا الله بالشفاء .. وفى صباح الجمعة بدأت تتخلص من آلامها وتتماثل للشفاء ! تاهت فى غيبوبة .. قالت لأمها وهى بين العالمين :

(لماذا تبكين يا أمى ؟! لقد شفيت .. أنا فى المنتزه) .. ثم عادت تقول : (أين أنا ؟!) .

ردت أمها : أنت فى بيتك .. على سريرك ..

قالت ليلى : (لا .. أنا أسير بين الحدائق) .

وفى اليوم التالى شاء القدر أن أكون عندها مع هناء وقد انعدم وعيها تماما عن الدنيا وامتنعت عن الكلام :

ليلى ما زالت فى غيبوبة .. تلتقط أنفاسها بصعوبة بالغة .. المحاليل معلقة بذراعها .. مرت ساعات .. ورويداً .. رويداً بدأت أنفاسها تهدأ وصوتها يخفت .. عيناها تتفتح وكأنها شاخصة ببصرها إلى أعلى .. إلى ما لا نهاية .. كأنها هائمة فى ملكوت آخر .. وإذا بصوت آذان العشاء يبارك المكان .. اختفت الهالات السوداء من وجهها .. ضاعت التقلصات وتلاشت كل علامات التعب والإعياء .. لم نعد نرى سوى وجه هادئ مستريح .. أيقنا بحضور الملائكة .. أغلقت هناء الباب .. منعنا دخول أى صوت قد يزعج ليلى فى تلك اللحظات الرهيبة .. وددنا لو تودعنا فى سلام وأمان .. فتحنا

المصحف .. قرأنا سورة يس .. الملك .. الرحمن .. وبمنتهى الهدوء نطقنا بالشهادتين .. وودعناها .. مع السلامة .. مع السلامة يا ليلى .

ورحلت ليلى من عالمنا .. أحسست وكأن نسمة رقيقة طارت من بيننا .. تحررت روحها الطاهرة من سجنها الجسدى وغدت حرة طليقة فى عالم واسع رحب .. انتهى الامتحان .. وتخلصت من عذاب الدنيا لتهنأ بنعيم الآخرة .. شاهدت جسد ليلى وهو خالٍ من روحها .. تأملت وجهها .. شعرت وكأنما أحاطته هالة من النور .. إحتوانى إحساس من الرضا والاطمئنان .. أيقنت بقلبى ما يعنيه عز وجلّ فى قوله : ﴿ **يا أيتها النفسُ المطمئنةُ ، ارجعى إلى ربِّكِ راضيةً مرضيةً** ﴾ ..[19] من خلال تلك التجربة الواقعية أحببت هاتين الآيتين كثيراً وعلمتُ معناهما بالنسبة لليلى الإنسان الذى رحل إلى عالم الآخرة .. وبالنسبة لى .. ليلى الإنسان الذى مازال فى عالم الدنيا . ﴿ **ما أصابَ من مصيبةٍ إلا بإذنِ اللهِ ومَنْ يؤمن باللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ واللهُ بكلِّ شئٍ عليمٌ** ﴾[20] .

كان هناك تساؤل حائر يدور بين المقربين من ليلى : لماذا عذبها عز وجل وقد كانت كالملاك لا تخطئ ؟.. وبعد أيام جاءت الإجابة .. قالت هناء : (رأيت ليلى فى منامى برداء جميل .. بيضاء نظيفة للغاية .. شعرها مبلول وكأنما أخذت حمامها تلك اللحظة .. ورأيت من حولها قصراً وحدائق رائعة الجمال .. قالت : كل هذا ملكاً لى .. هم يزورونى .. لكنى وحدى) . فرحت .. إحتوتنى سعادة غامرة .. وقلت لهناء : أعتقد والله أعلم أن نظافتها وشعرها المبلول دليل اغتسالها .. والعذاب الذى عانته فى الدنيا مع صبرها[21]

---

(١٩) الفجر : ٢٧ ، ٢٨ .

(٢٠) التغابن : ١١ . بإذن الله : بإرادته وقضائه وقدره تعالى – يهد قلبه : يوفقه لليقين والصبر والتسليم .

(٢١) فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ١٠ : أخرج مسلم من حديث صهيب قال : =

وشكرها لله هو حمامها الذى غسل ذنوبها .. فلم تعد فى حاجة بعد إلى عذاب البرزخ الذى يطهر المسلم من دنس ذنوبه قبل دخول الجنة .. إن ليلى الآن فازت بالنعيم بإذن الله .. وإنما يدل على ذلك القصر والحدائق الجميلة التى من حولها .. أما قولها : هم يزورونى لكنى وحدى فأعتقد والعلم عند الرحمن أن الذين يزورونها هم الملائكة وأرواح الموتى المؤمنين ولكنها وحدها لأنها أول من رحل إلى ذلك العالم من أهلها وأصدقائها المقربين تقريباً .. وإنما يدل ذلك على أن نعيمها لم يكتمل بعد لأنها مازالت فى نعيم البرزخ .. أما النعيم الكامل فهو فى الجنة بعد البعث والحساب .

تلك قصتنا .. كتبتها بالدمعة والبسمة .. لا أعنى دمعة الحزن .. بل دمعة المشاعر التى حركتها الذكرى .. وبسمة الطمأنينة والرضا بأمر ربى الرءوف الرحيم .. ها نحن لم تمضِ علينا سوى فترة وجيزة من رحيل ليلى التى رحلت بعد سامية بثلاث سنوات .. ها أنا الآن أحاول الخروج من بين تلك السطور .. ساعدنى صديقى القارئ وانسَ أنى إحدى بطلات تلك القصة .. تصور أنى مجرد راوية لقصة ما .. تصورت ؟!

تعليق :

كل حدث فى حياة الإنسان وراءه رسالة بالغة الحكمة من الخالق الأعظم .. المهم أن يفكر المخلوق فيها علّه يفهمها ويستطيع اتخاذ الموقف السليم

= قال رسول الله ﷺ : « عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير .. وليس ذلك لأحد .. للمؤمن إن أصابته سراء فشكر الله فله أجر ، وإن أصابته ضراء فصبر فله أجر ، فكل قضاء الله للمسلم خير » . وله شاهد من حديث سعد بن أبى وقاص بلفظ : « عجبت من قضاء الله للمؤمن ، إن أصابه خير حمد وشكر ، وإن أصابته مصيبة حمد وصبر فالمؤمن يؤجر فى كل أمره » الحديث أخرجه أحمد والنسائى . عن محمد بن خالد عن أبيه عن جده وكانت له صحبة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة فلم يبلغها بعمل ابتلاه الله فى جسده أو ولده أو ماله ثم صبر على ذلك حتى يبلغ تلك المنزلة » . رواه أحمد وأبو داود ورجاله ثقات ، إلا أن خالدا لم يرو عنه غير ابنه محمد ، وأبوه اختلف فى اسمه لكن إبهام الصحابى لا يضر .

إزاءها فيجتاز اختباره بنجاح .. قد تختلف مواقف مجموعة من الناس تجاه الحدث .. وقد يختلف موقف الشخص الواحد إزاء واقعة واحدة تتكرر أكثر من مرة كما أوردنا بالقصة السابقة : ماتت صديقة .. ثم رحلت بعدها الأخرى .. بالرغم من أنى أحمل لكلتيهما نفس درجة الحب التى يعجز القلم عن وصفها إلا أن موقفى اختلف تماماً فى الحالة الثانية عنها فى الأولى .. لماذا ؟

قبل وفاة سامية .. كنت أقرأ وأعلم بعقلى اليسير عن الموت والعالم الآخر .. أما بعد رحيلها اكتشفت أن هذا وحده لا يكفى .. القراءة والمعرفة مجرد خطوة على الطريق يجب أن تستمر وتتطور بالتدريب وترويض النفس .. وحين ماتت سامية .. سئمت الحياة .. أمسيت أنظر إلى الدنيا المحدودة بنظرة تشاؤمية محضة لأن نظرتى للآخرة اللا محدودة كانت أصلاً تشاؤمية .. إحساسى بالموت كان مخالفاً لما يعلمه عقلى عنه .. تصورت أنه فراق إلى الأبد .. شعورى به كان مجرد قبر وظلمة ودود وعالم رعب مجهول .. فكانت النتيجة الإفراط فى الشجن واليأس من الحياة .. وذلك ما يقع لعامة الناس عند مواجهة مثل تلك الصدمات كنتيجة للجهل بالموت والعالم الآخر ، والنفور من مجرد التفكير فيه .. فيذوب الإنسان فى دنياه الدانية من الفناء .. يكرس كل تفكيره وآماله فى ذلك العالم المصغر من عالمه الآخر الأصلى .. يطلب دائماً أن يصير له جنة .. وهذا محال .. فيثور .. يجزع ويفرط فى أحزانه حين يصطدم بمصائب الدنيا .. كما يفرح ويفرط فى أفراحه حين تهل عليه بمباهجها .. ذلك لأنها محور تفكيره الأساسى .. وهكذا يصير الإنسان لعبة فى يد الشيطان فلا يملك لنفسه شيئاً .

وعند رحيل ليلى كان من الممكن أن أترك لنفسى العنان فأصير لعبة فى يد الشيطان .. لكنى قرأت .. والمسئولية الأكبر أنى كتبت .. كتبت لأنى اقتنعت بعقلى وقلبى معاً .. أدركت تماماً أن الدنيا ليست عالمنا الوحيد .. بل

هى عالم مؤقت هبط إليه الإنسان نتيجة ضعفه أمام كيد الشيطان فكانت الخطيئة .. ونتيجة الخطيئة : الصراع الدائم بين الخير والشر كإختبار فى عالم مصغر مؤقت .. لو تخلص منها الإنسان وهزم شيطانه لفاز بعالمه الأول إلى الأبد بعيداً عن الشيطان ، وإلا هبط مع شيطانه إلى أسفل السافلين .. فكيف التخلص من الخطيئة ؟ بالصبر والحمد بعد الطاعة والإيمان .. قال تعالى : **﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بشئ من الخوْفِ والجُوعِ ونقصٍ من الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ وبَشّرِ الصابرينَ ، الذين إذا أصابتهُم مصيبةٌ قالوا : إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعون ، أولئك عليهِمْ صلواتٌ من ربِهِمْ ورحمَةٌ وأولئك همُ المهتدونَ ﴾**[٢٢] .

ووجدتنى لا أود أن أخسر دنياى الفانية .. لكنى أتلهف على الفوز بآخرتى الباقية .. هكذا تخلصت من عقدة الموت والعالم الآخر .. غدوت أنظر إلى ما بعد الدنيا بنظرة كلها حب وتفاؤل .. وبالتالى أصبحت نظرتى للدنيا أكثر تفاؤلاً .. تخلصت من اليأس والقنوط أمام المواقف الصعبة لأن الدنيا لم تعد محور اهتمامى الأساسى .. فى كتابه عز وجل : **﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ من رحمةِ ربّهِ إلا الضالّوُنَ ﴾**[٢٣] .

عندما رحلت ليلى .. فكرت : الموت له رهبة شديدة لا يستطيع إنكارها إنسان .. والحزن عند الموت أمر طبيعى سواء كان على الميت ذاته أو على فراقه .. ولكن عند حد معين لابد من تدخل الإرادة وعدم الاستسلام للأشجان .. فالإيمان القوى والتدريب المستمر لابد وأن يعينا الإنسان على الشيطان .

---

(٢٢) البقرة : ١٥٥ ، ١٥٧ . لنبلونكم : لنختبرنكم ونحن أعلم بأموركم . صلواتٌ من ربهم : ثناءٌ أو مغفرةٌ منه تعالى .

(٢٣) الحِجْر : ٥٦ .

وتساءلت : لِمَ الإفراط فى الحزن ؟ أللفراق ؟! وجنح بى الخيال إلى العالم الآخر : الموت ليس فراق إلى الأبد كما كنت أتصور .. بل هو رحيل من دار الاختبار إلى دار القرار .. رحلت ليلى كما رحلت سامية من قبل .. وسوف ألحق بهما فى يوم لا يعلمه إلا الله .. قد نلتقى من جديد بعيداً عن الأحزان .. قد تعاودنا البسمة فى عالم كله أفراح .. أفراح لا تنتهى أبداً .

على ما الإفراط فى الحزن إذن ؟ أعلى ليلى الراحلة ؟ كيف ؟! وقد تخلصت من عذاب الدنيا وانتقلت إلى نعيم الآخرة بإذن الله كما أشارت أثناء غيبوبتها ، وكما بشرت هناء فى المنام .. كيف أحزن عليها وقد كانت تحاول جاهدة أن ترضى الله سبحانه وتعالى .. كيف أحزن وقد تحملت آلام المرض العصيبة بنفس راضية .. شاكرة صابرة ؟! هل من الممكن أن أكون أحن عليها من خالقها الرحمن الرحيم الذى صارت بين يديه الآن ؟!

ووجدتنى لا أحزن فى حقيقة الأمر إلا على نفسى .. عند مصيبة الموت يجب أن يتدفق الحزن من الأعماق على شئ واحد .. على الحى .. فالميت عانى لحظة الموت ورهبتها ثم انتقل إلى دار الحق وعرف مصيره .. أما الحى فمازال فى دار الابتلاء يواجه كيد الشيطان .. يفوز تارة ويُهزَم أخرى ولا يعلم إلى أين ينتهى به المصير .. ﴿ **رَبَّنا أَفْرِغْ علينا صبراً وتَوَفَّنا مسلمينَ** ﴾[٢٤] .

البشرى للصابرين :

أخى القارئ : قد تمر فى حياتك أحداث عديدة دون أن تعبأ بها ، أو تكتفى بمجرد الانفعال الوقتى وانتهى الأمر ، فى حين أنك لو ألقيت الضوء على حدث منها وأمعنت النظر فيه لوجدت أن وراءه أبعاد قد لا تخطر لك على بال ، مما قد يغير من أسلوبك فى الحياة ويعينك على حياة أفضل .. من أهم ما

(٢٤) الأعراف : جزء من آية ١٢٦ . أفرغ علينا : أفِضْ أو صُبَّ علينا .

يجب أن يستمده الإنسان فى حياته صفة الصبر على البلايا .. الصبر بدون شكوى أو تذمر .. الصبر الجميل المتوج بالهدى والطمأنينة والرضا بأمر القدير العليم .. فالصبر بهذا المفهوم هو مفتاح الفرج فى الدنيا .. الصبر هو طريق النجاة يوم القيامة .. هو مفتاح الجنة .. الجنة الطيبة الطاهرة التى لا يدخلها إلا كل طيب طاهر .. قال تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نعلمَ المجاهدينَ منكم والصابرينَ وَنَبْلُوَاْ أخبارَكُمْ ﴾[٢٥] .. **﴿ .. إنَّمَا يُوَفَّى الصابرونَ أجرَهُم بغيرِ حسابٍ ﴾**[٢٦] .

أخرجا فى الصحيحين من حديث ابن أبى رباح قال : قال ابن عباس : ألا أريك إمرأة من أهل الجنة ؟

قلت : بلى .

قال : هذه المرأة السوداء أتت النبى ﷺ فقالت : (إنى أصرع[٢٧] وإنى أتكشف فادع الله لى) .

فقال : « إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوتُ الله لك أن يعافيك » .

فقالت : (أصبر) . ثم قالت : (فإنى اتكشف فادع الله أن لا أتكشف) . فدعا لها] .

إن الصبر على البلايا فى الدنيا يكفر الذنوب .. قد يخفف عن الإنسان عذاب الآخرة أو يدفعه عنه .. وقد يرفع درجاته فى النعيم .. وفى تلك الأحوال

---

(٢٥) محمد : ٣١ . لنبلونكم : لنختبرنكم بالتكاليف الشاقة . نبلوا أخباركم : نُظْهِرَهَا وَنكْشِفَهَا .

(٢٦) الزمر : جزء من آية ١٠ - بغير حساب : بلا نهاية لما يُعْطِى أو بتوسُّعٍ .

(٢٧) أصرع : مصابة بمرض الصرع .

تكون البلية نعمة وليست نقمة ويكفينا ما ورد عن الأنبياء وصبرهم على البلايا التى فى غنى عن السرد أو التعليق .

قالت عائشة رضى الله عنها : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ما مِنْ مؤمن يُشَاكُ بشوكةٍ إلا رفع الله له بها حسنة وحط عنه بها سيئة** »[٢٨] .

وما أكثر السيئات .. لو افترضنا أن متوسط عمر الإنسان ٦٠ سنة مثلاً ، والسنة ٣٦٥ يوماً باعتبارها سنة بسيطة .

إذن عمر الإنسان بالأيام = ٣٦٥ × ٦٠ = ٢١٩٠٠ يوماً .

لنفرض تجاوزاً أن الناتج ٢٠٠٠٠ يوماً فقط . دعنا من الخطايا الكبيرة ولنتوهم أن الإنسان لا يخطئ إلا ذنباً صغيراً يومياً .. معنى هذا أن الإنسان فى نهاية عمره سوف يحمل معه عشرين ألف ذنب صغير على أقل تقدير لا يستطيع دخول الجنة الطاهرة بهم مهما بلغت حسناته إلا بعد أن يتطهر منهم تماما .. فيحملهم على أكتافه ووراء ظهره ليجوز بهم الصراط حتى تتم تنقيته تماماً وطهارته منهم .. فيحق له بعد ذلك دخول الجنة .. ولكن رحمة الله عز وجل منحت الإنسان فرصة تطهره من ذنوبه فى الدنيا .. وإن لم يكن ففى شدة الموت .. وإلا بعد الموت فى البرزخ أو يوم القيامة .. وهو قادر جل جلاله أن يغفر لمن يشاء من عباده بشرط ألا يكون العبد عليه مظلمة لأخيه الإنسان .

---

(٢٨) وروى مسلم والترمذى والنسائى من حديث سفيان بن عيينة – بإسناده – عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : لما نزلت : ﴿ من يعمل سوءًا يُجْزَ به ﴾ شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله ﷺ : « سددوا وقاربوا فإن فى كل ما يصاب به المسلم كفارة . حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها » .

أخرج ابن ماجة فى سننه عن أبى هريرة رضى الله عنه : عن النبى ﷺ أنه عاد مريضاً ، ومعه أبو هريرة ، من وَعَكٍ كان به ، فقال رسولُ الله : « أَبْشِرْ ، فإنَّ الله يقولُ : هى نارى أُسَلِّطُهَا على عبدى المؤمن فى الدنيا لتكونَ حَظَّهُ من النارِ فى الآخرةِ » .

عند النسائى وابن ماجه عن عائشة أن النبى ﷺ قال لها :
« يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبا »(٢٩) .

فما من إنسان إلا واجتمع فيه الخير والشر .. وإنما تتفاوت النسب بين الناس .. فالإنسان الخيِّر لابد له من أخطاء كما أن الشرِّير لابد له من حسنات .. وحين يرضى الرب على عبد مؤمن يخلص سيئاته فى الدنيا إما فى شكل مرض أو فقر أو أى غم يصيبه حتى يستحق دخول الجنة طاهراً نظيفاً ، أما حين يغضب رب العزة على إنسان كافر فإنه لا يعذبه إلا بعد استيفاء حقه من الدنيا فى شكل الصحة والغِنَى والجاه والأفراح حتى يخلص كل حسناته ثم يلقى الله بلا حسنات فلا يستحق سوى عذاب الجحيم فى الآخرة .. أليس هذا هو قمة العدل ! .

فى حديث قدسى رُوِىَ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال عليه الصلاة والسلام : « **يقول الله تعالى لا أُخرِجُ عبْداً من عبادى منَ الدُّنيا وأنا أريد أنْ أغفرَ له إلا نقَصْتُ من سئ عمله بسقم فى جَسَده أو بضيق فى معيشته أو بما يصيبه من غم ، فإنْ بقى عليه من سيئاته شئ شددت عليه عندَ الموت حتى يلقانى ولا سيئة عليه .**

وعزتى وجلالى لا أخرج عبداً من عبادى وأنا أريد أن لا أغفر له إلَّا وفيته بكل حسنة عملها بصحةٍ فى جسده وفرح يصيبه ، وسعة فى رزقه ، فإن بقى من حسناته شئ هونتُ عليه عندَ الموت حتى يلقانى ولا حسنة له » .

لما سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت صفوة الله من خلقه .

---

(٢٩) وصححه ابن حيان .

وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال : « **أوفى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا** » .

وفى رواية : « **أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟!** »[٣٠] .

وفى الصحيحين وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال : « **لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها فإنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة** » .

أخى الإنسان : حذار من كبائر المعاصى .. وحذار ثم حذار من صغائرها .. وألف ألف حذار من ظلم الغير .. فالله يستطيع أن يغفر لعباده .. أما العبد فلا يستطيع أن يغفر لأخيه أو لوالديه أو حتى بنيه .

لا تجزع لما يأتيك من أحزان .. ولا تنظر لما يصيب غيرك من أفراح .. فأنت لا تعلم حكمة الله .

لا تطلب من الدنيا أن تكون لك جنة .. ولا تتصور أنها لك ناراً .. ضعها فى حجمها الطبيعى واعلم أنها مزيج مصغر منهما معاً .

واصبر على دنياك الفانية حتى تظفر بآخرتك الباقية .

﴿ فما أُوتِيتُم من شئٍ فمتاعُ الحياةِ الدنيا وما عِندَ اللهِ خيرٌ وأبقى للذين آمنوا وعلى رِبّهِمْ يتوكّلونَ ﴾[٣١] .

﴿ وما الحياةُ الدنيا إلا لَعِبٌ ولَهْوٌ وَلَلدّارُ الأَخِرَةُ خيرٌ للذينَ يتقونَ أفلا تعقلونَ ﴾[٣٢] .

---

(٣٠) ورد فى تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٢٧ .
(٣١) الشورى : ٣٦ .
(٣٢) الأنعام : ٣٢ .

﴿ هو الأوَلُ والآخِرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكِلِّ شئٌ عليمٌ ﴾[٣٣]

ما بيـــن النفحتـــين

حين يموت الإنسان منا تنفصل روحه عن جسده .. يدفن الجسد فى التراب .. يتحول من دم ولحم وعظام إلى تراب كما كان ؛ ولا يبقى منه إلا عظماً واحداً .. إسمه عَجْب الذَّنَب وهو بآخر فقرة فى العمود الفقرى بالظهر والتى تسمى العُصْعُص وهو أول ما يخلق فى الإنسان ومنه يعود فى النشأة الثانية عند البعث والقيام . قال رسول الله ﷺ : « **يأكل التراب كل شئ من الإنسان إلا عجب الذنب** » .

قيل : ومثل ما هو يا رسول الله ؟

قال : « **مثل حبة خردل منه تنبتون** »[٣٤] .

أما الروح فمكانها البرزخ .. وهو المكان الفاصل بين عالمى الدنيا والآخرة .. ذلك المكان لا يعلمه إلا الله .. قد تنعم الروح أو تُعَذَّب متصلة بجسدها أو منفصلة عنه تبعاً لعمل الإنسان ووفقاً لمشيئة الرحمن .. وعند قيام الساعة .. عند نفخة الصعق ينقطع نعيم وعذاب البرزخ فينعدم إحساس الأموات تماماً سواء بالنعيم أو بالعذاب ويفنى الكون بأسره .. تصدعت

---

(٣٣) الحديد : ٣ . الأول : السابق على جميع الموجودات . الآخر : الباقى بعد فنائها . الظاهر : بوجوده ومصنوعاته وتدبيره . الباطن : بِكُنْه ذاتِهِ عن العُقُولِ .

(٣٤) قال أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا لهيعة حدثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ قال : (الحديث) .

السماوات والأرض .. صعقت كل المخلوقات .. تهدم كل شئ فى الوجود .. عاد إلى ما كان عليه منذ الأزل فأمسى لا وجود .

وانتهت الدنيا .. انتهت لأن وجودها لم يكن ذاتياً .. بل كان مستمداً من الوجود الذاتى الحقيقى الأوحد .. أجل إنه الوجود الإلهى الأعظم .. لما أراد الإله صارت الدنيا .. ولما أراد انتهت .. فلم يبق إلا هو .. الإله الأول الذى كان منذ الأزل ولم يكن قبله شئ .. لم يبق إلا هو الإله الآخر الذى سيبقى إلى الأبد وليس بعده شئ .. وهو أيضا نفس الإله الظاهر الذى يستحيل أن يصير فوقه شئ .. وهو الإله الباطن الذى ليس دونه شئ .. سبحانك يا الله .. أنت الأول والآخر الذى استغرق كل حقيقة الزمان .. كما أنك الظاهر والباطن الذى احتوى كل حقيقة المكان .. أنت الحقيقة الذاتية الوحيدة ومنك .. منك فقط وبإرادتك وعلمك وقدرتك يُستَمد كل هذا الوجود .. فقد حق قولك : ﴿ **كلُّ مَنْ عليها فانٍ ، ويبقى وجهُ رَبّكَ ذو الجلالِ والإكرامِ** ﴾[٣٥] .

تظل الفترة ما بين النفحتين إلى أجل لا يعلمه إلا الله .. كل ما نعرفه أنها أربعون .. لكن هل أربعون يوماً ؟ شهراً ؟ سنة ؟ العلم عند الله .

روى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « **بين النفحتين أربعون** » .

قالوا : يا أبا هريرة أربعون يوماً ؟

قال : أبيت[٣٦] .

قالوا : أربعون سنة ؟

---

(٣٥) الرحمن : ٢٦ ، ٢٧ . فان : هالك . ذو الجلال : العَظَمة والاستغناء المطلق . الإكرام : الفضل التام .

(٣٦) أبيت : إمتنعت عن تفسير ذلك : لا أستطيع تفسيره .

قال : أبيت .

قالوا : أربعون شهراً ؟

قال : أبيت ، ويبلى كل شئ من الإنسان إلا عجب الذنب منه يركب الخلق[٣٧] .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما بين النفحتين أربعون** » .

قالوا : يوماً ؟

قال : « أبيت » .

قالوا : أربعون شهراً ؟

قال : « أبيت » .

قالوا : أربعون سنة ؟

قال : « أبيت » .. قال : « ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل »[٣٨] ..

قال : « **وليس من الإنسان شئ إلا يبلى إلا عَجْب الذَّنب[٣٩] ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة** »[٤٠] .

سبحان الله ! العليم الخبير .. القادر الجبار الذى وسعت قدرته كل

---

(٣٧) قال البخارى ثنا عمر بن حفص بن غياث ثنا أبى ثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (الحديث) .

(٣٨) البقل : كل نبات أخضرت له الأرض ومفرده البقلة وهى الرّجْله . وفى رواية أخرى كنبات الطرائيث . والطرث : كل نبات طرى غض .

(٣٩) عَجْب : أصل الذَّنب ، عَجْب الذَّنب : وهو عظمه : العُصْعُص : هو العظم اللطيف الذى فى أسفل الصلب وهو رأس العصعص .

(٤٠) قال مسلم فى صحيحه حدثنا أبو كريب حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى صحاح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (الحديث) .

شئ .. يخلق ما يشاء .. كيفما يشاء .. بأسباب .. أو بدون أسباب .. بأمر .. فيبلى كل جسد ابن آدم إلا عجب الذنب الذى يكون بمثابة البذرة فى الأرض ومنه يخلق الإنسان من جديد .. تهب الرياح .. يجمع الله ما تفرق من أجساد البشر .. من ذرات التراب .. ينزل المطر من السماء .. من تحت عرشه عز وجل إلى الأرض .. فينبت عجب الذنب .. يتحول التراب إلى عظم ولحم وعروق .. ويصير جسد الإنسان .

﴿ وَهُوَ الذى يُرْسِلُ الرياحَ بُشرا بين يَدَىْ رحمتِهِ حتى إذا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالًا سُقْنَاهُ لبلدٍ ميتٍ فأنزلنا به الماءَ فأخرجنا به من كُلِّ الثمراتِ كذلك نُخْرِجُ الموتى لعلكم تَذَكَّرُونَ ﴾(٤١) .

هكذا تخلق أجساد البشر من جديد .. ليس كمثل الحيوان كما كان فى النشأة الأولى عن طريق الحمل والوضع والرضاع .. بل مثله فى النشأة الثانية كمثل النبات .. ومثله فى النشأتين كمثل آدم الذى خلق جسده من الأرض عند بداية البداية وإن اختلفت الوسيلة !

من الأرض خلق الإنسان .. توالد جيلاً بعد جيل .. ثم عاد إليها جيلاً قبل جيل .. وانتهت الأجيال .. من الأرض تخلق تلك الأجيال من جديد فى نشأة واحدة .. فى وقت واحد كجيل واحد .

﴿ واللهُ أنبتكم من الأرضِ نباتاً ، ثم يُعيدُكم فيها ويُخرجُكُمْ إخراجاً ﴾(٤٢) .

﴿ منها خلقناكم وفيها نُعِيدُكُمْ ومنها نُخرِجُكُمْ تارةً أُخرىٰ ﴾(٤٣) .

---

(٤١) الأعراف : ٥٧ . بُشْراً : مبشراتٍ برحمته وهى الغيث . أَقَلَّتْ سَحَاباً : حملته ورفعته . ثِقَالًا : مثقلة بحمل الماء . لبلد ميت : مُجْدِبٍ لا ماءَ فيه ولا نباتَ .

(٤٢) نوح : ١٧ : ١٨ . أنبتكم من الأرض : أنشأكم من طِينَتها .

(٤٣) طه : ٥٥ .

إكتمل خلق الأجساد فى قبورها .. لكنها مازالت ميتة لا حياة فيها لأن الأرواح لم تعد إليها بعد .. واقتربت اللحظة الحاسمة .. يأمر الجبار فيحى ملائكته .. يحيا حملة عرشه كما يحيا إسرافيل .. يؤمر .. فيأخذ بالصور ويضعه على فيه .. ثم يحيا جبريل وميكائيل .. يدعو القهار بالأرواح فيؤتى بها .. يؤتى بأرواح المؤمنين تتوهج نوراً والأخرى ظلمة .. يقبضها جميعاً ويلقيها فى الصور .. ثم يأمر إسرافيل أن ينفخ النفخة الثانية .. نفخة البعث .

﴿ ونُفِخَ فى الصورِ فَصَعِقَ مَن فى السمٰواتِ ومَن فى الأرضِ إلّا مَن شاءَ اللهُ ثم نُفِخَ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرونَ ﴾(٤٤)

(٤٤) الزمر : ٦٨ . الصور : القَرْنِ الذى ينفخ فيه إسرافيلُ . فصعق : مات . وذلك فى النفخةُ الأولى .

﴿ ونُفِخَ فى الصُّورِ فإذا هم من الأجداثِ إلى رَبِّهِمْ يَنسلُونَ ﴾[45]

نفخـــة البعـــث

يُنْفَخُ فى الصور .. تخرج منه الأرواح تباعاً .. تتطاير كالنحل فى أنحاء الكون .. تملأ ما بين السماء والأرض .. منها أرواح تتلألأ نوراً وأخرى مظلمة .. تخترق الأرض لتنفذ للأجساد .. تهتدى كل روح إلى جسدها .. تتسلل إليه .. تسرى فيه وتلتحم به فيتزاوجا تزاوجاً أبدياً لا انفصال ولا موت بعده .. فيحيا الإنسان فى قبره .. يقوم فزعاً من هول صوت النفخ فى الصور .. يجد نفسه فى قبر مظلم رعيب فى باطن الأرض .. يشعر بالأرض ترتج به وهو متحير فى ظلمته .. تغلى وتفور من الأعماق وهو مازال فى جوفها .. وفجأة .. يسمع صوتاً ينادى من مكان قريب .. يأمر بالحشر للعرض على الجبار .. ﴿ **وَاستَمِعْ يومَ يُنَادِ المُنَادِ من مكانٍ قريبٍ ، يومَ يسمعونَ الصَّيْحَةَ بالحقِّ ذلك يومُ الخُرُوجِ ، إنَّا نحنُ نُحْيي ونُمِيتُ وإلينا المصيرُ ، يومَ تَشَقَّقُ الأرضُ عنهم سِرَاعاً ذلك حَشْرٌ علينا يَسِيرٌ** ﴾[46] .

وينخلع قلب الإنسان .. يهوى بين ضلوعه .. فى تلك اللحظات الرهيبة .. تزول غشاوة الظلم والتكبر والعناد .. وتلقائياً .. بالفطرة المجردة ..

---

(45) يس : 51 . الصور : قرن مجوف كالبوق . الأجداث : القبور . ينسلون : يسرعون فى الخروج .

(46) ق : 41 : 44 . يسمعون الصيحة : نفخة البعث . تشقق الأرض : تنفلق وتتصدع . سراعاً : مسرعين إلى الداعى .

يلجأ الكافر إلى ربه كالمؤمن .. يستغيث به طالباً منه الرحمة والمغفرة .. ينادى صارخاً من أعماق ذاته : ربنا ارحمنا .. ربنا ارحمنا .

وإذا بأصوات .. أصوات رهيبة مروعة تدوى فى كل مكان وكأنها بركان هائل .. إنها الأرض تتشقق من فوقه .. تتفجر بصوتها المريع لتلقى بما فيها .. تتناثر منها كل المخلوقات : بَشَر .. جن .. حيوانات .. طيور .. حشرات .. جمادات .. وكل ما كان فى جوف الأرض تقذف به خارجها دفعة واحدة .. يفاجأ الإنسان بنفسه فى وسط هذا الخضم الهائل من المخلوقات .. يتطاير كفراش تائه لا يهتدى إلى طريق .. يتخبط فى سائر مخلوقات الله .. يزدحم سطح الأرض .. ويشتد الزحام .. تصير المخلوقات كغمامة لا يمكن التمييز بينها كأفراد ..

﴿ خُشَّعاً أبصارُهُم يخرجون من الأجداثِ كأنهم جرادٌ منتشرٌ ، مُهْطِعِينَ إلى الدَّاعِ يقولُ الكافرونَ هذا يومٌ عَسِرٌ ﴾[47] .

وفى غمرة تلك الأهوال إذا برحمة الرب تأتى من السماء .. إنها ملائكة[48] تطير من كل اتجاه .. مهللة فرحة مستبشرة .. تزف أجمل وأحلى بشرى فى الوجود .. تسرع إلى المؤمنين .. وفى لمح البصر تقترب منهم لتلقاهم وتقول :

﴿ بشراكُمُ اليومَ جناتٌ تجرى من تحتِهَا الأنهارُ خالدينَ فيها ذلك هو الفوزُ العظيمُ ﴾[49] .

يتهلل المؤمن فرحاً .. تملأه سعادة غامرة .. يدرك أنه قام من موته وانتقل إلى العالم الآخر .. فيجنح به الخيال إلى المستقبل القريب . يخال نفسه

---

(٤٧) القمر : ٧ ، ٨ . مهطعين : مسرعين مادّى أعناقهم . يوم عسر : صعب شديد لعظم أهواله .

(٤٨) ليست كل الملائكة بل بعضها فقط .

(٤٩) الحديد : جزء من آية ١٢ .

لكأنه فراشة هائمة فى ملكوت الله .. سابحة غارقة فى حب الله .. يود لو يطير مسرعاً إلى نعيم الله .. وينسى كل ما لقيه من ظلم وهوان فى الدنيا التى ولّت وانتهت .. ينسى حتى ما هو فيه الآن من أهوال .. فقد حان وقت الإنصاف .. آن وقت العدل والرحمة والنعيم الأبدى .. نفض المؤمنون تراب القبر عن رؤوسهم ﴿ **وقالوا : الحمدُ لله الذى أَذْهَبَ عنَّا الحَزَنَ إنَّ ربَّنَا لغفورٌ شكورٌ** ﴾[50] .

فزعت تلك الكلمات سمع الكافرين .. ردّدوا فى ذهول الحيارى المقهورين : أَذْهَبَ عنَّا الحَزَنَ ؟! أى حزن هذا الذى ذهب عنا ؟! نحن فى أشد وأقسى أوقات الحزن .. أين نحن ؟! لقد كنا نياماً ! ﴿ **قالوا : يا ويلَنَا من بعَثَنَا من مَّرقَدِنا ؟!** ﴾[51] .

يرد المؤمنون على الفور : ﴿ **هذا ما وَعَدَ الرحمنُ وصَدَقَ المُرْسَلُونَ** ﴾[51] .

يتمتم الظالمون : وعد الرحمن ؟! صدق المرسلون ؟! أنحن الآن فى يوم القيامة ؟! أكنا مجرد أموات ؟! وما مصيرنا ؟! أهو الجحيم الأبدى ؟! لا .. محال .

ويصاب الفاجر بخيبة أمل .. تعود به الذكرى إلى الماضى البعيد .. إلى حياته الدنيا التى انتهت وغدت مجرد ماضٍ قريب : لقد كذَّب بالمرسلين .. كذَّب بالله وبوعد الله .. وظلم المؤمنين .. فكيف يلقى الله اليوم ؟! كيف يحظى بشفاعة المرسلين ؟! أم كيف يأمن من مظالم المؤمنين ؟! تساؤلات .. خواطر عديدة تتبادر إلى ذهنه وهو حائر لا يجد لها مبررات ... يتلفت حوله

---

(٥٠) فاطر : ٣٤ . الحزَنَ : كل ما يُحْزِنُ ويَغُمُّ .

(٥١) يس : ٥٢ .

مذعوراً علّه يجد الخلاص فإذا بالشياطين آتية إليه من كل اتجاه بأشكالها الحقيقية المفزعة .. إذا به يموج فى وسط حشر هائل من الجن والوحوش والحشرات .. يصرخ مذعوراً ولا من سميع .. ينادى فلا من مجيب .. لم يدرك حتى الآن أنه الحشر وأن تلك المخلوقات قد سُلبت وحشيتها تماماً وصارت مثله ذليلة خاضعة .. ويبكى .. يبكى أحر بكاء بكاه فى الوجود .. ﴿ **يومَ يَرَوْنَ الملائكة : لا بشرى يَوْمَئِذٍ للمجرمينَ .. ويقولونَ حِجْراً مَّحْجُوراً** ﴾[٥٢] .

أما المؤمنون فبالرغم من تلك الأهوال الرهيبة فإن البشرى تأتيهم واحدة تلو الأخرى فتنسيهم ما حولهم من أحزان .. ﴿ **لا يَحْزُنُهُمُ الفزعُ الأكبرُ وتتلقاهُمُ الملائكةُ : هذا يومُكُمُ الذى كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾[٥٣] .

فتطمئن قلوبهم وتعاودهم الفرحة من جديد لتحتوى كل كيانهم .. كما تتجدد الحسرة فى أعماق الظالمين .. ﴿ **إن الله لا يَظْلِمُ الناسَ شيئاً ولكنَّ الناسَ أنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ، ويومَ يَحْشُرُهُمْ كأن لم يَلْبَثُوا إلَّا ساعةً من النَّهَارِ يتعارَفُونَ بينهم قد خسِرَ الذين كَذَّبُوا بلقاءِ الله وما كانوا مهتدينَ** ﴾[٥٤] . ﴿ **فاليومَ لا تُظْلَمُ نفسٌ شيئاً ولا تُجْزَوْنَ إلا ما كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[٥٥] .

تعارف الناس :

يتعارف الناس فيما بينهم وهم مأخوذون بمفاجأة البعث والحشر .. يتنادون[٥٦] فى وسط الزحام .. يتساءلون ويجيبون فى ذهول وكأنهم لم يفيقوا من يقظتهم بعد .. يتصور الإنسان أنه كان نائماً فى حلم .. لم يستطع الإدراك

---

(٥٢) الفرقان : ٢٢ . حجراً محجوراً : حراما محرما عليكم البشرى .
(٥٣) الأنبياء : ١٠٣ . الفزع الأكبر : حين نفخة البعث .
(٥٤) يونس : ٤٤ ، ٤٥ .
(٥٥) يس : ٥٤ .
(٥٦) يتنادون : سمى يوم القيامة يوم التنادِ حيث ينادى بعض الناس أولئك الذين أضلوهم فى الدنيا طالبين منهم دفع العذاب عنهم .

حتى تلك اللحظة أنه الموت وأن ما اعتقده حلماً هو فى الحقيقة نعيم البرزخ أو عذابه .. يخال نفسه لكأنما لبث فى قبره مجرد ساعة وهو لا يعلم أنها قد تكون أعواماً وقروناً وأحقاباً .. تتضاءل الدنيا فى مخيلته وكأنما عاش فيها يوماً أو بعض يوم .. فيشعر وكأن سنوات عمره التى ضيعها من أجل الفوز بدنياه ما كانت إلا لحظات ثم أسدل الستار .. وانتهت الدنيا وها هو اليوم لم يأخذ منها سوى عمله .. فينقشع عن بصيرته الظلام ليكتشف أن الدنيا كانت قصيرة وها قد أتته الآخرة بغتة .. فماذا أعد لها ؟ كيف يستطيع مواجهة ربه فى لحظة الحساب ؟ كيف يستطيع مواجهة ربه الذى برز إليه الآن بدون ساتر ولا حجاب ؟ لقد كان مكشوفاً دائماً أمامه عز وجل وهو يعلم ذلك لكنه لم يوقن به تماماً ولم يستشعره فى أعماقه إلا فى تلك اللحظات بعد أن رفع عنه الستار وبرز بذنوبه وخطاياه مجسمة فوق ظهره وحانت ساعة الحساب .. فماذا ينتظر من جزاء فى عالم البقاء والخلود ؟

تتزاحم فى ذهنه التساؤلات .. تفور فى عروقه الدماء .. ويصيح الضعفاء بالأقوياء .. ﴿ **وبَرَزُوا للهِ جميعاً فقالَ الضعفاءُ للذين استكبروا : إنَّا كُنَّا لكم تَبَعاً فهل أنتم مُغنُونَ عَنَّا من عذابِ اللهِ من شئٍ ؟! ..** ﴾[٥٧] .

يتصور الضعفاء أن ضعفهم عذراً وهم لا يدركون أنه جريمة .. فليس الضعف هو الفقر أو المرض .. ليس الضعف هو قلة الجاه والسلطان .. إنما الضعف الحقيقى الذى يسأل عنه العبد هو ضعف العقل والضمير .. ضعف النفس والإرادة .. مهما مَلَكَ إنسان من إنسان فهو لا يستطيع أن يملك عقله أو ضميره أو نفسه إلا لو تنازل عنهم برغبته وهنا فقط يصير الإنسان ضعيفاً تابعاً فى تفكيره وعقيدته وسلوكه ..

---

(٥٧) إبراهيم : جزء من آية ٢١ . برزوا : خرجوا من القبور للحساب . مغنون عنَّا : دافعون عنَّا .

ويوم القيامة تكون مسئوليته كاملة أمام الله عن كل ما فرط فيه من حرية وكرامة وآدمية .. فى يوم القيامة تنكر المستكبرون من المسئولية .. ﴿ **قالوا : لو هدانا اللهُ لهديناكم .. سَوَاءٌ علينا أَجَزِعْنَا أم صَبَرْنَا ما لنا من مَّحِيصٍ** ﴾(٥٨) .. قالوا : لِمَ تلوموننا ؟ إننا لم نهتدِ ونضلكم ولو هدانا الله لهديناكم معنا .. علام الجزع من العذاب ؟ أيخرجنا من الضلال إلى الهدى ؟ أيجدى ذلك فى هذا اليوم ؟! وعلام الصبر على الشدة ؟ أتدركنا رحمة الله ؟ أَيُعْقَل أن يرحمنا الله اليوم بعد كل ما ارتكبنا من أوزار مجسدة مثقلة فوق ظهورنا الآن ؟! لقد فات الأوان وقُضِيَ الأمر ولا مفر من العذاب .

أخيراً اعترف المستكبرون بقدرة الله التى كثيراً ما أنكروها فى دنياهم .. انهم الآن .. فى يوم القيامة .. وبعد فوات الأوان ينسبون هداهم وضلالهم إلى الله .. الله الذى لا يمكن أن يأمر بالضلال أبداً .. ﴿ .. **إنَّ اللهَ لا يأمُرُ بالفحشاءِ .. أتقولون على الله ما لا تعلمون !** ﴾(٥٩) .. ﴿ **الشيطانُ يَعِدُكُمُ الفقرَ ويأمُرُكُمْ بالفحشاءِ .. واللهُ يَعِدُكُم مغفرةً منه وفضلاً واللهُ واسعٌ عليمٌ** ﴾(٦٠) .

يتلاوم العباد ويختصمون فيما بينهم .. ﴿ **الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بعضُهُم لبعض عَدُوٌّ إلا المتقينَ** ﴾(٦١) .. المستضعفون يلقون المسئولية على المستكبرين .. والمستكبرون بدورهم يلقونها على الشيطان .. والشيطان يردها إلى الجميع بعد أن بدا ظاهراً بينهم بشكله الحقيقى المريع وقد لازمهم فى الدنيا دون أن تراه العيون .. وسوس فى الصدور .. زين الكفر والعناد وأغرى بالعصيان فاتبعه الفاجرون .. وها هو ذا اليوم بعد فوات الأوان يتبرأ منهم ..

---

(٥٨) إبراهيم : جزء من آية ٢١ . مَحِيص : مَنْجى وَمَهْرَب ومَرَاغ .
(٥٩) الأعراف : جزء من آية : ٢٨ . الفحشاء : أفعال متناهية فى القبح .
(٦٠) البقرة : ٢٦٨ .
(٦١) الزخرف : ٦٧ . الأَخِلَّاءُ : الأحباءُ فى غيرِ ذاتِ اللهِ .

بل ويلومهم لاستجابتهم لدعواه الباطلة وتركهم دعوة الحق من الله .. يلومهم لأنهم اتبعوه وهم يعلمون أنه كافر .. اتبعوه وهم يعلمون بعدائه القديم لهم .. وقف الشيطان بين العباد بعد أن رفع عنه الحجاب .. وقف بكل قوة وثبات .. بكل جرأة ووضوح .. ﴿ **وقال الشيطانُ لما قُضِيَ الأمرُ : إنَّ الله وَعَدكُم وَعْدَ الحقِّ ووعدتُكُمْ فأخلَفْتُكُمْ وما كان لى عليكُم من سلطانٍ إلا أن دعوتُكُمْ فاستجبْتُمْ لى فلا تَلُومُونِى ولوموا أنفسَكم .. ما أنا بِمُصْرِخِكُمْ وما أنتم بِمُصْرِخِيَّ .. إنى كفرتُ بما أشركتُمُونِ من قبلُ إنَّ الظالمينَ لهم عذابٌ أليمٌ** ﴾[٦٢] .

يجزع العباد .. ويشتد الشجار .. ﴿ **يومَ القيامةِ يكفُرُ بعضُكُم ببعض ويلعنُ بعضُكُم بعضاً** ﴾[٦٣] .. وفجأة ! يسود الصمت .. تمتد الأعناق .. وترتفع الأبصار .. تنتبه الأسماع .. إنه صوت قوى جبار .. نداء علوى كريم .. يملأ كل الوجود : ﴿ **يا عبادِ لا خَوْفٌ عليكُمُ اليومَ ولا أنتم تَحْزَنُونَ** ﴾[٦٤] . فيطمع كل الخلق .. ترتسم الفرحة على الوجوه حتى يتبع النداء :

﴿ **الذين آمنوا بآياتِنَا وكانوا مسلمينَ** ﴾[٦٥] .

فيصاب الكفار باليأس والقنوط .. وترفرف قلوب المؤمنين بسعادة ليس لها مثيل .. تغرورق عيونهم بدموع الفرح .. يسرعون فى السير .. يرددون فى صوت واحد .. بكل حب وإجلال .. بكل عزيمة جبارة :

---

(٦٢) إبراهيم : ٢٢ . سلطانٍ : تَسَلُّطٍ أو حُجَّةٍ . بمصرخكم : بمغيثكم من العذاب . بمصرخىَّ : بمُغيثىَّ من العذاب .

(٦٣) العنكبوت : جزء من آية ٢٥ .

(٦٤) الزخرف : ٦٨ .

(٦٥) الزخرف : ٦٩ .

لا إله إلا الله[٦٦] .. لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. له الملك وله الحمد .. وهو على كل شئ قدير .

وترتعد أجساد الأشرار .. يزدادون خوفاً وهلعاً .. وإذا بنائحة[٦٧] شعثاء غبراء[٦٨] مسودة الوجه[٦٩] تتساءل بجهل وغباء : ما هذا الموكب العظيم ؟! ماذا يفعلون ؟!

فلا تجد لها من مجيب .. فالمؤمنون مازالوا يرددون شعارهم العظيم (لا إله إلا الله) .. والكفار مازالوا ناكسى الرءوس تملأ قلوبهم حسرة لم يعهدوا لها مثيلاً من قبل .. تمسك النائحة بإنسان يسير بجانبها ناكس الرأس .. تزفر عيناه بالدموع .. تتعلق به وتلح عليه : قل لى أنت بالله عليك .. لماذا يصيحون ؟! فيصرخ فيها الإنسان ويقول : أما زلت تجهلين أنك فى يوم القيامة ؟! ألا تدركين حجم المصيبة التى نحن فيها ؟!

تذهل المرأة .. تخبط بيدها على صدرها وتردد هامسة مذعورة : مصيبة ؟! يوم القيامة ؟!

ثم تلطم وجهها ويعلو صوتها .. تلوح بيديها فوق رأسها وتقول صارخة : وامصيبتاه ! واحسرتاه ! يا ويلتاه ![٧٠]

---

(٦٦) ذكر أبو القاسم إسحاق بن إبراهيم بن محمدفى كتاب الديباج له . حدثنا أبو محمد عبد الله ابن يونس بن بكير حدثنا أبى عن عمرو بن سمير عن جابر عن محمد بن على عن ابن عباس وعلى بن حسين أن رسول الله ﷺ قال : « أخبرنى جبريل عليه السلام أن : لا إله إلا الله أنس للمسلم عند موته وفى قبره ، وحين يخرج من قبره ، يا محمد ، لو تراهم حين يمرقون من قبورهم ينفضون رءوسهم ، هذا يقول : لا إله إلا الله ، والحمد لله ، فيبيض وجهه : وهذا ينادى : يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله مسودة وجوههم » .

(٦٧) النائحة : من كانت تصرخ وتلطم فى الدنيا وراء الأموات .

(٦٨) شعثاء غبراء : غير ممشطة الشعر وعلى وجهها غبرة وتراب .

(٦٩) ﴿ ويومَ القيامةِ ترَى الذين كَذَبُوا على اللهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أليس فى جَهَنَّم مَثوىً للمتكبرينَ ؟! ﴾ الزمر : ٦٠ . مثوىً للمتكبرين : مأوىً ومُقامٌ لهم .

(٧٠) روى النسائى عن النبى ﷺ أنه قال : « تخرج النائحة من قبرها يوم القيامة شعثاء غبراء =

تفزع سائر النائحات .. تسرعن فى السير وترددن وراءها نفس الكلمات فى صوت واحد .. يسمع الأشرار ذلك فيهتز كل كيانهم وينفجر ما بداخلهم من إحساس بالهول .. فيصرخون .. يا حسرتنا على ما فرطنا فى جنبه الله .

﴿ قد خسِرَ الذينَ كَذَّبُوا بلقاءِ اللهِ حتى إذا جاءتهُمُ الساعةُ بَغْتَةً قالوا : يا حسرتنا على ما فرَّطنا فيها وهم يحملون أوزارَهُمْ على ظهورِهِمْ ألا ساءَ ما يَزِرونَ ﴾[٧١] ..

﴿ .. وَمَن يَغْلُلْ يأتِ بما غَلَّ يومَ القيامةِ ثم تُوَفَّى كُلُّ نفسٍ مَّا كَسَبَتْ وهم لا يُظْلَمُونَ ، أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضوانَ اللهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ من اللهِ ومأواه جَهَنَّمُ وبئس المصيرُ ، هم درجاتٌ عِندَ اللهِ واللهُ بصيرٌ بما يعملون ﴾[٧٢] .

وتعلو نداءات المؤمنين .. يلبى[٧٣] من مات حاجاً أو معتمراً بكل قوة وحماس : لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .. إن الحمدَ والنعمةَ لك والملك .. لا شريك لك .

وينادى كل من مات مظلوماً بكل صبر وخشوع .. بكل أمل بَسَّام : حسبنا الله ونعم الوكيل .. حسبنا الله ونعم الوكيل .

= عليها جلباب من لعنة الله ، ودرع من نار ، يدها على رأسها ، تقول : يا ويلاه » .

وأخرجه بمعناه مسلم وابن ماجه عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « النياحة من أمر الجاهلية ، وإن النائحة إذا ماتت قطع الله لها ثيابا من نار ، ودرعا من لهب النار » [لفظ ابن ماجه] .

(٧١) الأنعام : ٣١ . بغتة : فجأةً من غير شعور . فرطنا فيها : قصرنا وضيعنا فى الحياة الدنيا . أوزارهم : ذنوبهم وخطاياهم .

(٧٢) آل عمران : جزء من آية ١٦١ ، ١٦٣ .

يَغُلّ : يخون فى الغنيمة . باء بسخطٍ : رجع مُتَلَبِّساً بغضبٍ شديدٍ .

(٧٣) روى مسلم عن ابن عباس أن رجلا كان مع رسول الله ﷺ محرما وقَصَتْه ناقته فمات فقال رسول الله ﷺ : « اغسلوه بماء وسِدْرٍ ، وكفنوه فى ثوبه ، ولا تمسوه بطيب ، ولا تخمروا رأسه ، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا » . [أخرجه البخارى] . وقَصَتْه : داسته . السدر : ورق شجرة كانت تغنى عن الصابون تنظيفاً ورائحة . تخمروا : تغطوها بخمار وهو غطاء الرأس .

أصوات .. أصوات عديدة تعلو فى كل مكان .. هذا يكبر : الله أكبر .. وذاك يردد بالحمد والشكر .. وهاك كان مؤذناً فى الدنيا فيبعث يوم القيامة مؤذناً .. كل يبعث على صفته التى مات عليها[٧٤] .

وبالرغم من قلة المؤمنين فى وسط هذا الجمع الهائل من المخلوقات إلا أنهم قوة وتعلو أصواتهم فى ذلك اليوم فوق أصوات الكافرين .. فتشرق وجوههم بالنور وتبيض من البشاشة .. وتسود وجوه الأشرار من الكآبة والحزن ..

﴿ يومَ تبيضُّ وُجُوهٌ وتَسْوَدُّ وجوهٌ فأما الذين اسودَّت وجوهُهُم أكَفَرْتُم بعدَ إيمانِكُم فذوقوا العذابَ بما كنتم تَكْفُرُونَ ، وأما الذين ابيضَّتْ وجوهُهُمْ ففى رحمةِ الله هم فيها خالدونَ ﴾[٧٥] .

الشمس وبحار العرق :

تدفع البشرى بأهلها إلى الأمام .. وتعود الكآبة بأصحابها إلى الوراء مع سائر المخلوقات .. وفى ظل هذا الحشد الهائل .. يُدفع الجميع إلى السير بسرعة واحدة .. **﴿ وجاءتْ كُلُّ نفسٍ مَّعَهَا سائقٌ وشهيدٌ ﴾**[٧٦] .. يسير ملك خلف كل عبد ليسوقه إلى أرض المعاد وآخر ليشهد عليه وقت الحساب .. قد يكونان هما الكاتبان الحافظان له اللذان سجلا كل أعماله فى حياته الدنيا .. ويحشر كل إنسان مع قرينه من الجان .. وتدنو الشمس من العباد[٧٧] .. قد

---

(٧٤) روى مسلم عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « يُبعث كلُّ عبد على ما مات عليه » .

وعن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا أراد الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على نياتهم » [أخرجه البخارى] .

(٧٥) آل عمران : ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٧٦) ق : ٢١ .

(٧٧) قال الإمام أحمد حدثنا إبراهيم بن اسحاق حدثنا ابن المبارك عن عبد الرحمن بن يزيد بن =

تكون غير شمس الدنيا .. المهم أنها تُكْسى حراً أضعاف ما كانت عليه فى الدنيا .. ويسير الخلق حفاة عراة[٧٨] .. ﴿ **وهم يَحْمِلُونَ أوزارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ** ﴾[٧٩] .. وتختلف منهم الأقدام من شدة الزحام .. تموج كل المخلوقات فى بعضها .. يدفع بعضهم بعضاً من شدة الكرب والضيق .. يختلط وهج الشمس بحر الأنفاس .. بصهد الانفجارات[٨٠] .. بثقل الأحمال .. باحتراق القلوب ونار الخوف والخجل من العرض على الجبار .. ويفيض العرق .. يسيل على الأرض ويمتزج بترابها .. بصهد انفجاراتها .. بدموع الأحزان .. ويرتفع على الأبدان بقدر الأوزار .. لكن ليست كل الأبدان .. فهؤلاء أنبياء .. وأولئك علماء استفادوا بالعلم وأفادوا به .. ها هم الصديقون والشهداء .. كل هؤلاء وغيرهم يستظلون فى ذلك اليوم العصيب فى ظل عرش الرحمن[٨١] .. لم تصبهم الشمس ولم يخرج منهم العرق .. إن البِشْرَ يفيض من وجوههم .. إنهم يتحادثون مع الملائكة بكل حب وترحاب .. إلهى ! يالعظمة قدرتك وسعة رحمتك ! تماماً كما قال رسولك الكريم :

« إن لله مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق بينهم ، وتسعة وتسعون ليوم القيامة »[٨٢] .

= جابر حدثنى سليم بن عامر حدثنى المقداد يعنى ابن الأسود الكندى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين – قال :فتصهرهم الشمس فيكونون فى العرق كقدر أعمالهم ومنهم من يأخذه إلى عقبيه ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ومنهم من يأخذه إلى حقويه ومنهم من يلجمه إلجاماً » . رواه مسلم عن الحكم بن موسى عن يحيى بن حمزة ، والترمذى عن سويد عن ابن المبارك كلاهما عن ابن جابر به .

(٧٨) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً » قلت : يا رسول الله ، النساء والرجال جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟! قال ﷺ : « يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » . متفق عليه . غرلاً : غير مختونين .

(٧٩) الأنعام : جزء من آية ٣١ . أوزارهم : ذنوبهم وخطاياهم .

(٨٠) الانفجارات : التى تفجرت من باطن الأرض لحظة البعث .

(٨١) عرش الله : هو سقف كل المخلوقات وأعظمها .

(٨٢) أخرج مسلم – بإسناده عن سلمان الفارسى – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « الحديث » .

فهذا عبد كان حاكماً فى الدنيا أسدى إليه الله بنعمة السلطان والجاه .. صان نعمة ربه وعدل فى حكمه بين العباد .. أصبح حاكماً مؤمناً عادلاً متواضعاً .. كما صار عبداً متصدقاً كريماً لا تعلم شماله ما تنفق يمينه .

وذلك آخر حُرِمَ الجاه والسلطان .. أطبق عليه الفقر والهوان .. صبر واحتسب .. وحينما واتته الفرصة للاستمتاع بشهوات الدنيا التى حرمها الله امتنع وأبى إلا ما حلل الله .

هؤلاء العباد تحابوا[٨٣] فى الله .. لم يحب كل منهم الآخر ولم يصادقه من أجل مصلحة دنيوية .. بل تجاذب بعضهم إلى بعض لحبهم فى الله .. فجمعت بينهم الصداقة بكل ما تحمله من معانى الصدق والوفاء والتضحية وإنكار الذات حتى رضى كل منهم لأخيه ما ارتضاه لنفسه .. اجتمعوا جميعاً على ذكر الله .. وتعاونوا على العمل الصالح البناء بما يرضى الله ..

أما هذا العبد فكان لا يتوانى عن خدمة مكروب[٨٤] فى دنياه .. لم يلجأ إليه إنسان فى ضيق إلا وسعى بكل ما يملك من طاقات لنجاة أخيه مما هو فيه من كرب دون انتظار لشكر أو مقابل إنما ابتغاء وجه الله .. ولم يرَ حيواناً أو طائراً بائساً إلا وأغدقه بكل رحمة ورفق .

---

(٨٣) أخرج مسلم فى صحيحه من كتاب الفضائل ، حدثنا قتيبة بن سعيد ، عن مالك بن أنس فيما قرئ عليه عن عبد الله بن عبد الرحمن بن مَعْمَرٍ ، عن أبى الحُبَاب ، سعيد بن يسار ، عن أبى هريرة : رضى الله عنه : قال : قال رسول الله ﷺ : « إن اللهَ يقولُ يومَ القيامةِ : أين المتحابون بجلالى ؟ اليوم أُظلهم فى ظلى يومَ لا ظلَّ إلا ظلى » .

(٨٤) عن أبى اليسر كعب بن عمرو رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله فى ظله » . رواه مسلم .

وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من نفَّس عن مسلم كُربةً من كُرب الدنيا نفَّسَ الله عنه كربةً من كُرَب يوم القيامة .. »

وذاك نشأ فى عبادة الله .. تعلق قلبه بالمساجد .. وكلما ذكر الله خالياً جاشت مشاعره وفاضت عيناه خشوعاً وحباً لله .

كل أولئك[٨٥] وأمثالهم رجال ونساء .. ومن شتى المخلوقات لم تذهب أعمالهم سدى :

﴿ إنَّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ إنَّا لا نُضيعُ أجرَ مَنْ أحسَنَ عملاً ﴾[٨٦] .

إنهم يستمتعون فى ذلك اليوم الرعيب بظل عرش الرحيم بينما سائر العباد الذين يحشرون معهم على نفس الأرض ! تتوهج فوقهم الشمس ويسيل منهم العرق الذى تتفاوت نسب ارتفاعه على الأجساد بقدر الأوزار .: الهى ! يا لروعة قدرتك وعدلك ! من العباد من يصل عرقه إلى قدميه .. ومنهم من يبلغ ركبتيه وهكذا حتى يلجم[٨٧] أشد العصاة الكافرين الجاما .. يا لهول انتقامك يا إلهى ! إن الكافر الظالم يشعر بالمياه تغلى من حوله .. والدماء تفور فى عروقه .. الشياطين والثعابين والذباب والنمور والنسور وغيرها وغيرها مازالت تحيطه وتعانى هى الأخرى من الهول بقدَر ذنوبها وخطاياها .. وتفوح من عرقه رائحة كريهة .. كريهة .. يشعر بشدة الأرهاق والتعب .. تثقل حركته .. يحاول التوقف لكن الجموع من حوله تدفعه والملك من ورائه يسوقه .. يفزع ويرتعد .. يود لو يصرخ أو يبكى لكنه لا يستطيع .. لا

---

(٨٥) ثبت فى الصحيح فى حديث عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلهُ » . وفى رواية : « ظل عرشه » . « إمام عادل . وشاب نشأ فى عبادة الله . ورجل قلبه متعلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه . ورجل دعته إمرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، واثنان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا على ذلك . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا يعلم شماله ما أنفقت يمينه . ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » .

(٨٦) الكهف : ٣٠ .

(٨٧) يلجمهم العرق إلجاما : أى يصل إلى أفواههم .

يستطيع حتى أن يلتقط أنفاسه .. إنه يبتلع الماء الكريه مرغما .. ها هو يدخل فى أحشائه .. إنه يغرق .. يختنق .. يحيط به الموت من كل اتجاه .. فيتمناه ويسعى إلى لقياه .. لكنه سرعان ما يكتشف أن الموت قد غدا مجرد سراب واهن من الأمل .

ويسير العباد .. يسيرون تحت وهج الشمس المتقد .. وهج الشمس الذى سلطه القهار على عباده الأشرار فى يوم لا ظل فيه إلا ظل عرش الرحمن الذى لا يستظل به سوى عباده الأبرار .

طلب الشفاعة :

ويطول الزمان .. فيجزع الإنسان .. يجزع وهو لا يدرى كم مضى من الوقت منذ لحظة البعث .. فقد انتهى تعاقب الليل والنهار .. واختلفت مقاييس حساب الزمان .. تفاوت إحساس العباد بطول الزمن أو قصره تبعاً للأعمال . **﴿ ... وإنّ يوماً عِند رَبّك كألفِ سَنَةٍ مما تَعُدُّونَ ﴾**(٨٨) .. **﴿ يُدَبّرُ الأمْرَ من السماءِ إلى الأرضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إليه فى يومٍ كان مِقْدارُهُ ألفَ سَنَةٍ مما تَعُدُّونَ ﴾**(٨٩) .. **﴿ تَعْرُجُ الملائكةُ والروحُ إليه فى يومٍ كان مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ ﴾**(٩٠) .

تُرَى ! هل مضى من يوم القيامة ما يعادل سنوات من سنوات الدنيا ؟ أم مضت قرون ؟ أم تُراها أكثر من ذلك ؟ العلم عند الحليم الصبور .

---

(٨٨) الحج : جزء من آية ٤٧ .

(٨٩) السجدة : ٥ . يَعْرُجُ إليه : يصعد الأمْرُ ويرتفعُ إليه بعد تدبيره .

(٩٠) المعارج : ٤ . تعرج الملائكة : تصعد فى تلك المعارج . الروح : قد يكون جبريل عليه السلام . فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة : قد يكون يوم القيامة ومقداره هكذا عند الكفار . وثبت فى الصحيح تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة .

لكن الحقيقة الوحيدة التى تسيطر على العباد فى تلك اللحظات هى أن الشمس مازالت تحرق أجسادهم وقلوبهم لزمن لا يعلمون مداه حتى غرق الكافر فى بحر من العرق .. العرق الذى غطى رأسه تماماً وألهب جسده من شدة حرارته .. لم يستطع سوى أن يضرب بيديه على رأسه محاولاً النجاة من الغرق دون جدوى .. انه يغرق لكن لن يموت .. وفقد القدرة على التفكير أو حتى الكلام أو الاستغاثة ..

لو تعرض مخلوق فى الدنيا لضربة شمس لمات واستراح من هولها .. ولو ذاق عذاب الغرق ولو للحظات لمات على الفور .. لكنه فى الآخرة قد يتعرض لكل هذا وأكثر منه لأزمان طويلة ولا يموت أبداً .

أما المؤمنون فمنهم من يستظل بعرش الملك القدوس .. ومنهم من يعانى من وهج الشمس بقدر ذنوبه وتبعاً لدرجة إيمانه .. فهذا وصل العرق إلى قدميه فقط .. وذاك إلى ركبتيه .. وهاك إلى خصره .. وذلك مؤمن عاصٍ ضعيف الإيمان وصل عرقه إلى صدره أو رقبته أو ذقنه .. فيجزع هؤلاء المؤمنون وينادون[٩١] : ربنا خلصنا من هذا العذاب .. أرحنا من ذلك الكرب والانتظار ولو إلى النار .. ألا من شفيع لنا عند الله ؟ أين أبونا آدم ؟ أَوَ لا يحزنه ما يسوء أبناءه ؟! ألا يسعى لتفريج كربنا ؟!

يا آدم : أنت أبو البشر .. إصطفاك الله[٩٢] .. وخلقك بيده[٩٣] .. نفخ فيك من روحه .. أَسْجَدَ لك ملائكته .. وأسكنك الجنة .. علمك أسماء كل شئ .. ألا ترى ما نحن فيه ؟! نرجوك أن تشفع لنا عند ربك ..

---

(٩١) أحاديث الشفاعة وردت كثيراً منها ما رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه وأحمد .
(٩٢) ﴿ إِنَّ الله اصطفى آدَمَ ونوحاً وآل إبراهيمَ وآل عِمْرَانَ على العالمين ، ذريةَ بعضُهَا من بعضٍ والله سميعٌ عليمٌ ﴾ . (آل عمران : ٣٣ ، ٣٤) . آل عمران : عيسى وامه مريم بنت عمران .
(٩٣) خلقك الله بيده : أى بقدرته من غير واسطة أب ولا أم .

فيتمنى آدم لو يستطيع لكنه يبادرهم قائلاً : الدنيا كانت فرصتكم أيها الأبناء .. أمهلكم فيها الرقيب الكريم(٩٤) علكم ترجعون إليه وتتوبون ولكنكم لم تفعلوا .. وها أنتم اليوم بعد أن ضيعتم كل فرص النجاة تطلبون الشفاعة للخلاص من العذاب ودخول الجنة .. ومِن مَنْ ؟! من أبيكم الذى تسبب لكم فى الخروج من الجنة والعذاب ؟! لقد عصيت ربى وأكلت من الشجرة التى نهانى عنها .. وها أنا أشفق على نفسى من خطيئتى فى يوم لم يغضب ربى قبله مثله ولن يغضب بعده مثله .. اذهبوا إلى غيرى .. اذهبوا إلى نوح فهو رسول بعثه الله من بعدى إلى أهل الأرض ..

سبحان الله ! كيف لآدم أن يضخم ذنبه أكثر مما ينبغى ؟! إن هبوط الإنسان على الأرض كان قدراً مكتوباً لا مفر منه .. لكنها العناية الإلهية التى شاءت أن تعد ذلك الكائن البشرى لخلافة الأرض وترعاه باختبار إرادته وتنبيهه إلى ما ينتظره من صراع بين الرغبات التى يزينها الشيطان وبين إرادته وعهده للخالق التواب .. فكانت التجربة الأولى .. تجربة آدم مع إبليس والشجرة .. فكيف لآدم أن يخشى ذنباً ندم عليه وتاب واعتذر واستغفر وكفرٌ عنه حتى غفره له ربه وقالها على الملأ فى كتابه العزيز : ﴿ ... **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى ثم اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فتابَ عليه وَهَدىٰ** ﴾(٩٥) .

وينادى البشر : **يا نوح !** أنت أبونا بعد آدم .. أنت من أوائل الرسل إلى أهل الأرض .. وسماك الله عبداً شكوراً(٩٦) .. أما ترى ما نحن فيه ؟! ألا تشفع لنا عند ربك ؟! .

---

(٩٤) الرقيب الكريم : من أسماء الله الحسنى .

(٩٥) طه : جزء من آية ١٢١ ، ١٢٢ . عصى آدم : خالَفَ النَّهْىَ سَهْوًا أو بِتَأَوُّلٍ . فغوى : فضلَّ عن مطلوبه أو عن النَّهْىِ . اجْتَبَاهُ : اصطَفَاهُ للنبوةِ وَقَرَّبَهُ .

(٩٦) ﴿ ذُرِيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مع نوحٍ إنه كان عبداً شكوراً ﴾ الإسراء : ٣ .

يرد نوح : أنا لست أهلاً للشفاعة فقد سألت ربى بغير علم .. وها هو اليوم قد غضب غضباً فاق كل غضب .. ائتوا إبراهيم فهو خليل الله .

أيخجل إنسان من زلة صغيرة وحيدة إرتكبها فى عمر حافل بالجهاد فى سبيل الله بلغ تسعمائة وخمسون عاماً ؟! .. ﴿ **ولقد أرْسَلْنا نُوحاً إلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عاماً فأخذهُمُ الطُّوفَانُ وهم ظالمونَ** ﴾[97] .

بعد انتهاء الطوفان وموت ابن نوح تحركت فى نفسه لهفة الأب الجَزِع وتذكر وعد ربه بنجاة أهله .. ﴿ **ونادى نوحٌ ربَّه فقال : رَبّ إنَّ ابنى من أهلى وإنَّ وَعْدَكَ الحقُّ وأنت أحكمُ الحاكمينَ** ﴾[98] .

وجاءه الرد من ربه قوياً بما يشبه التأنيب والتهديد :
﴿ **قال : يا نوحُ إنه ليس من أهلِكَ ، إنه عَمَلٌ غيرُ صالح ، فلا تَسْألْنِ ما ليسَ لك بهِ عِلْمٌ ، إنى أَعِظُكَ أن تكوْنَ من الجاهلينَ** ﴾[99] .

إنها الحقيقة التى غفل عنها نوح : فالأهل عند الله هم قرابة العقيدة وليسوا قرابة الدم .. وذلك الابن لم يؤمن برسالة أبيه النبى المؤمن ولهذا فهو لا يعد من أهله .. وارتجف نوح حين جاءه الرد .. خشى أن يكون قد أخطأ فى حق ربه .. فلجأ إليه .. يعوذ به .. ويطلب غفرانه ورحمته .. ﴿ **قال : ربِّ إنى أعوذُ بك أن أسْألَكَ ما ليس لى به عِلْمٌ وإلَّا تغفِرْ لى وترحَمْنِى أكن من الخاسرينَ** ﴾[100] .

وأدركت رحمة الله نوحا تطمئن قلبه بعد أن غفر له وباركه هو والصالحين من نسله ، أما الظالمون ففى عذاب أليم .. ﴿ **قيل يا نوحُ اهْبِطْ**

---

(٩٧) العنكبوت : ١٤ .
(٩٨) هود : ٤٥ .
(٩٩) هود : ٤٦ .
(١٠٠) هود : ٤٧ .

بسلامٍ منّا وبركاتٍ عليك وعلى أُمَمٍ ممن معك وأُمَمٌ سنُمَتّعُهُمْ ثم يَمَسُّهُمْ منا عذابٌ أليم ﴾(١٠١) .. **﴿ ولقد نادانا نوحٌ فَلَنِعْمَ المجيبونَ ، ونَجَّيْنَاهُ وأَهْلَهُ من الكَرْبِ العظيمِ ، وجعلنا ذُرّيتَّهُ هُمُ الباقين ، وتركنا عليه فى الآخِرِينَ ، سلامٌ على نوحٍ فى العالمينَ ، إنّا كَذلك نَجْزِى المحسنين ، إنه من عبادِنَا المؤمنين ، ثم أغرقنا الآخرينَ ﴾**(١٠٢) .

أَبَعْدَ كل هذا الصفح والرضا يذكر نوح تلك الزلة ويخجل من مواجهة ربه بها يوم القيامة ! حقيقة أنه إنسان ولكنه ليس كأى إنسان .. إنه نبى وتلك سمة الأنبياء !

ويتوجه البشر إلى إبراهيم : **يا إبراهيم** .. **أنت** خليل(١٠٣) الرحمن .. أنت أبو البشر وأبو الأنبياء .. نتوسل إليك أن تشفع لنا عند ربك ليخلصنا من ذلك الكرب العصيب .

يتساءل إبراهيم .. لكن كيف ؟! لقد كذبت فى الدنيا فكيف أواجه ربى اليوم ؟! اذهبوا إلى غيرى .. اذهبوا إلى موسى الذى كلمه الله وآتاه التوراة .

يقول إبراهيم .. ذلك النبى الكريم : كذبت .

يعنى عليه السلام بذلك قوله : (إنى سقيم) ، وقوله : (بل فعله كبيرهم هذا) .

فما قصة كلتا الكذبتين ؟! أو بمعنى أدق كلتا الهفوتين ؟!

---

(١٠١) هود : ٤٨ . بركات : خيراتٍ ثابتةٍ ناميةٍ .

(١٠٢) الصافات : ٧٥ : ٨٢ .

(١٠٣) الخليل : الصديق : لكن المقصود هنا أن إبراهيم وصل إلى أعلى درجات المحبة عند الله تعالى .

بعد يأس إبراهيم من استجابة قومه لدعوته الفطرية التى جبله الله عليها وعبادة إله واحد قوى قهار عقد العزم مع نفسه أن يحطم أصنامهم التى يعبدون .. وجاء اليوم .. كان يوم عيد .. وضع القوم طعاماً أمام الآلهة كقربان لتبارك لهم فيه .. وتأهبوا للخروج إلى النزهات .. دعوا إبراهيم للخروج معهم لكنه رفض .. ﴿ **فقال : إنى سقيمٌ** ﴾(١٠٤) .. قالها حتى تسنح له الفرصة لتنفيذ ما عزم عليه من خير لا شر فيه .. ولا ينفى ذلك أنه كان سقيماً بالفعل .. فقد كان مثقلاً بالأحزان والهموم لما وصل إليه قومه من الكفر والعناد .. ﴿ **فتولَّوْا عنه مُدبِرينَ** ﴾(١٠٥) .. ولما خلى له المكان .. أسرع إلى الأصنام .. نظر إلى الطعام الذى أمامها واشتد غيظه .. ﴿ **فَرَاغَ إلى آلِهَتِهِمْ .. فقال : ألَا تأكلونَ !** ﴾(١٠٦) .

وبطبيعة الحال لم ترد الأصنام .. إزداد كمده وسأمه .. اشتدت سخريته بعقول قومه الذين يعبدون تلك الأحجار التى لا تسمع ولا تفهم .. لا تتكلم ولا تفعل .. قال للأصنام بكل أسى وتهكم : ﴿ **مَالَكُمْ لا تَنطقُونَ** ﴾(١٠٧) .

وأراد أن يعطى قومه درساً عملياً بعد أن فشل معهم النصح بالكلام .. همَّ على الأصنام بكل ما فيه من قوة وعزم .. بكل ما فيه من سقم وكمد .. ﴿ **فَرَاغَ عَلَيهِمْ ضرباً باليمينِ** ﴾(١٠٨) .. ﴿ **فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إلا كبيراً لهم لعلَّهم إليه يَرْجِعُونَ** ﴾(١٠٩) .

---

(١٠٤) الصافات : ٨٩ . سقيم : مريض حزين ، والمراد أنه سقيم القلب لكفرهم .
(١٠٥) الصافات : ٩٠ .
(١٠٦) الصافات : ٩١ . فراغ إلى آلهتهم : فمال إليها خِفْيَةً ليحطِّمَهَا .
(١٠٧) الصافات : ٩٢ .
(١٠٨) الصافات : ٩٣ . ضرباً باليمين : يضربُهُمْ ضرباً ملتبِساً بالقوةِ .
(١٠٩) الأنبياء : ٥٨ . جذاذاً : قِطَعاً وَكسَراً : حطاما . إلا كبيرا لهم : إلا الصنم الكبير عندهم : أى تحولت الآلهة المعبودة إلى قطع صغيرة من الحجارة والأخشاب المهشمة إلا كبير الأصنام .

وعاد القوم من نزهاتهم .. وجدوا آلهتهم محطمة جميعها إلا الصنم الأكبر .. ثاروا وتوقفت عقولهم عن التدبر والتفكير .. قيدت التقاليد أفكارهم وأعمت الخرافة عيونهم .. لم يتساءلوا : لو كانت تلك الحجارة آلهة بالفعل فَلِمَ عجزت عن الدفاع عن نفسها ؟! ولماذا لم يدافع عنها كبيرها ؟!

لقد حصروا عقولهم الضيقة فى البحث عن محطم تلك الآلهة المزعومة حتى عرفوا أنه إبراهيم فأتوا به .. ﴿ **قالوا : أأنت فعلتَ هذا بآلهتِنا يا إبراهيمُ** ﴾[110] ؟

أما زالوا يقولون آلهتنا ؟! وأراد إبراهيم عليه السلام بعقله المتفتح الكبير أن يبادروا بالاعتراف تلقائياً بأن الأصنام جماد مسلوب الإدراك والإرادة .. لا ينطق ولا يصدر عنه فعل .. فنظر إليهم بسخرية وتهكم .. وأشار إلى الصنم الأكبر .. ﴿ **قال : بل فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إن كانوا يَنطِقُونَ** ﴾[111] .

لم يكذب إبراهيم لأن قومه يعلمون يقينا أن الصنم الذى صنعوه بأيديهم من الحجارة لا ينفع ولا يضر وبالرغم من ذلك فإنهم يعبدونه كتقليد وجدوا عليه آباءهم .. يعبدونه لأن قلوبهم وعقولهم قد تحجرت مثله تماماً .. بل كان رد إبراهيم عليه السلام قمة فى السخرية والبلاغة التى أراد بها أن يفتح عقول هؤلاء السفهاء وقلوبهم ليحررها من تقاليدها العمياء .. وبالفعل كادت تتفتح للحظات لكنها سرعان ما أغلقت من جديد .. ﴿ **فَرَجَعُوا إلى أنفُسِهِمْ فقالوا : إنكم أنتمُ الظالمونَ ، ثم نُكِسُوا على رءُوسِهِمْ لقد عَلِمْتَ ما هؤلاءِ يَنطِقُونَ** ﴾[112] .

---

(١١٠) الأنبياء : ٦٢ .
(١١١) الأنبياء : ٦٣ .
(١١٢) الأنبياء : ٦٤ : ٦٥ نكسوا على رُءُسِهِم : رجعوا إلى الباطل والعناد : أطرقوا فى الأرض .

الكذب لا يتأتى إلا كنتيجة للجبن .. وإبراهيم لم يكن جباناً بل كان قوياً شجاعاً وحليماً صبوراً .. كان إبراهيم عليه السلام قوياً بعقيدته وعقله وإرادته فلم يكن هناك ما يدعوه للكذب أبداً .. لم يخشَ إبراهيم قومه .. وحينما قالوا : ﴿ **لقد عَلِمْتَ ما هؤلاء ينطقون** ﴾ .. أقام عليهم الحجة .. فقد اعترفوا علنّا أن آلهتهم لا تنطق .. وبالرغم من ذلك فإنهم مازالوا يعبدونها من دون الله .. وثار إبراهيم .. بادرهم على الفور بكل جرأة وشجاعة :
﴿ **قال : أَفَتَعْبُدُونَ من دُونِ الله مالا ينفعُكُمْ شيئاً ولا يضرُّكُمْ !، أفٍ لكم وَلِماَ تعبدون من دونِ الله أفلا تعقلونَ !** ﴾(113) .

أراد إبراهيم بهم خيراً وأرادوا به الشر .. ضاعت منهم كل الحجج فلم يستطعوا الرد لأن عقولهم واهية ضعيفة .. لم يعد أمامهم سوى البطش والقوة الغاشمة التى لا تعتمد على فكر أو عقيدة فلجأوا إلى أشد العذاب .. ﴿ **قالوا : حَرِّقُوهُ وانصروا آلِهَتَكُمْ إن كنتم فاعلينَ** ﴾(114) .

لم يكذب إبراهيم عليه السلام عندما قال : ﴿ **إنى سقيم** ﴾ .. ولا حينما قال : ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ .. ولو كان ذلك كذباً لغضب عليه الله تعالى لكن إبراهيم نال رضاه ورحمته عز وجل .. فوقتما أمر القوم بحرقه كان أمر آخر قد صدر فأحبط كل كيد وأبطل كل فعل .. كانت كلمة الله العليا وأمره الذى لا يرد .. أمره الذى أعلنه فى كتابه العزيز .. قال المهيمن الجبار :
﴿ **قلنا : يا نارُ كونى برداً وسلاماً على إبراهيمَ ، وأرادوا به كيداً فجعلناهُمُ الأخسَرِينَ** ﴾(115) .

وخير إنصاف لإبراهيم ما ورد بكتاب الله الكريم : ﴿ **واذكر فى**

---

(113) الأنبياء : 66 ، 67 . أُفٍّ لكم : كلمة تضجر وكراهية وتبرم .
(114) الأنبياء : 68 .
(115) الأنبياء : 69 : 70 . الأخسرين : المغلوبين الأسفلين . فقد نصر الله إبراهيم على قومه .

الكتابِ إبراهيمَ إنه كان صِدِّيقاً نبياً ﴾[١١٦] .. ها هو الخالق الحكيم يقول عن إبراهيم أنه كان صديقاً نبياً .. وقد كرمه عز وجل حين اتخذه خليلاً وقال :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبراهيمَ حَنِيفاً واتَّخَذَ اللهُ إبراهيمَ خَلِيلاً ﴾[١١٧] .

ويلجأ الناس إلى موسى : **يا موسىَ** .. يا كليم الله[١١٨] .. نستعطفك أن تشفع لنا عند رب العالمين فقد اصطفاك برسالاته وبكلامه[١١٩] على أهل العالم كله فى زمانك .. ألا يحزنك ما بلغنا من كرب ؟!

يبادرهم موسى : لست أهلاً للشفاعة فقد قتلت نفساً لم أومر بقتلها وعسى ربى أن يرحمنى فى ذلك اليوم العصيب .. عليكم بكلمة الله وروحه عيسى .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واستوى آتيناهُ حُكْماً وعِلْماً وكذلك نَجْزِى المحسنينَ ، ودخل المدينةَ على حينِ غفلةٍ من أهلها فَوَجَدَ فيها رجلينِ يقتتلانِ هذا من شِيعَتِهِ وهذا من عَدُوِّهِ فاستغاثَه الذى من شِيعَتِهِ على الذى من عَدُوِّهِ فوكزه

---

(١١٦) مريم : ٤١ . صديقاً : تحتمل معنى أنه كثير الصدق وأنه كثير التصديق وكلتاهما تناسب شخصية إبراهيم عليه السلام .

(١١٧) النساء : ١٢٥ . أسلم وجهه لله : أخلَصَ نفَسه أو تَوَجُّهَهُ وعِبَادَتَهُ للهِ . حَنِيفاً : مائلاً عن الباطِل إلى الدينِ الحقِّ . خليلاً . الخلة هى أرفع مقامات المحبة .

(١١٨) ﴿ ... وكَلَّمَ اللهُ موسى تكليماً ﴾ . النساء : جزء من آية ١٦٤ .

(١١٩) ﴿ قال يا موسى إنى اصطفيتُكَ على الناسِ برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتُكَ وكُن من الشاكرينَ ﴾ . الأعراف : ١٤٤ .

موسى فقضى عليه .. ﴾[١٢٠] .. ما هى إلا ضربة واحدة من موسى ومات الرجل .. كان موسى قوياً .. تجرع مرارة ظلم فرعون وآله على قومه من بنى إسرائيل .. ولما رأى الفرعونى يعتدى على الإسرائيلى الذى استغاث به .. ثار واشتد غضبه .. أسرع إليه لينقذه .. فوكز القبطى[١٢١] وكزة واحدة وإذا به يقع صريعاً على الأرض .. ففزع موسى .. انتابته الحيرة والقلق .. إنه لم يقصد القتل .. بل أراد تخليص المظلوم من يد الظالم .. ذهل موسى : ماذا يفعل ؟ كيف يغفر له ربه تلك الجريمة ؟! أهكذا صار قاتلاً ؟! دارت فى ذهنه العديد من التساؤلات .. ندم على ما فعل بسبب الغضب .. والغضب أصلاً من الشيطان : ﴿ **قالَ : هذا من عَمَلِ الشيطانِ .. إنه عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبينٌ** ﴾[١٢٢] .

كان موسى قوى البنية .. مرهف الحس .. فاهتز كيانه وتوجه إلى ربه معترفا بذنبه .. متضرعاً إليه طالباً غفرانه .. ﴿ **قال : رَبِّ إنى ظلمتُ نفسى فاغفر لى . فَغَفَرَ له .. إنه هو الغفورُ الرحيمُ** ﴾[١٢٣] .. ولما غفر له ربه شعر بعظيم نعمه عليه .. فقد آتاه الحكمة والعلم والقوة .. وأنعم عليه كثيراً من قبل .. وأخيراً أهداه عز وجل بنعمة الغفران .. فسعد موسى وارتعش وجدانه .. تعهد لربه ألا يكون نصيراً للمجرمين أبداً .. ﴿ **قال : ربِّ بما أنعمتَ علىَّ فلن أكونَ ظهيراً للمجرمينَ** ﴾[١٢٤] .

هكذا أذنب موسى بغير عمد ثم ندم وتاب فغفر له ربه وعفا عنه ..

---

(١٢٠) القصص : ١٤ : جزء من آية ١٥ . بلغ أَشُدَّهُ : قوةَ بدنه ونهاية نموه .
استوى : اعتدل عقله وكُمل . فوكزه : ضربه بجمع يده .

(١٢١) القبطى : الفرعونى : المصرى .

(١٢٢) القصص : جزء من آية ١٥ .

(١٢٣) القصص : ١٦ .

(١٢٤) القصص : ١٧ . ظهيرا للمجرمين : مُعيناً لهم .

هكذا تبرأ موسى أمام ربه من جريمة القتل ومن المجرمين .. ومع ذلك فإنه يستحى يوم القيامة من مواجهته عز وجل لأنه نبى كريم .. مرهف المشاعر والأحاسيس .

إن قصة قتل موسى لرجل من آل فرعون كانت وراءها حكمة بالغة من الحكيم الرشيد ..[125] فقد توالت بعدها الأحداث التى أثمرت فى النهاية ذلك الرجل العظيم الذى أصبح نبياً من بنى إسرائيل .. أراد الله أن يبتلى موسى ليربيه ويعده للنبوة فاختبره بالخوف والهرب من قصاص فرعون .. إمتحنه بفراق الأهل والوطن والغربة .. بحياة التقشف بعد أن كان مترفاً منعماً فى قصر أعظم ملوك الأرض .. إجتاز موسى أكثر من امتحان على مدى سنوات عديدة فصبر وثبت حتى نضج وتأهب لحمل المسئولية العظمى .. وفى الوقت المقدر .. صدر أمر الله فعاد موسى إلى مصر نبياً من أنبياء الله .. ﴿ .. **وقَتَلْتَ نفساً فنجيناك من الغِمّ وفتنّاك فُتوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فى أهلِ مَدْيَنَ ثم جِئْتَ على قَدَرٍ يا موسى ، واصْطَنَعْتُكَ لنفسى** ﴾[126] .. ﴿ **واذكر فى الكتابِ موسى إنه كانَ مخلصاً وكانَ رسولاً نبياً** ﴾[127] .

ما زالت الشمس تحرق العباد .. ومازال العرق يسيل من الأجساد وقد طال الانتظار .. فيصرخ البشر : ألا من شفيع لنا عند الله ؟ أين عيسى ؟ **يا عيسى** .. أنت روح الله وكلمته[128] .. أنت عبد الله ورسوله .. أيرضيك ما نحن فيه ؟ ألا تخلصنا مما نعانيه ؟

---

(١٢٥) الحكيم الرشيد : من أسماء الله الحسنى .

(١٢٦) طه : جزء من آية ٤٠ : ٤١ . فتناك فتونا : خلصناك من المِحَنِ تخليصا . جئت على قدر : على وفق الوقت المقدر لإرسالك . اصطنعتك لنفسى : اصطفيتك لرسالتى وإقامة حجتى . مدين : البلد التى هرب إليها موسى بعد حادث القتل ، وهى بلاد واقعة حول خليج العقبة من عند نهايته الشمالية ، وشمال الحجاز وجنوب فلسطين تنسب إلى مدين .

(١٢٧) مَرْيَم : ٥١ .

(١٢٨) ﴿ .. إنما المَسيحُ عيسى ابنُ مَرْيَمَ رسولُ الله وَكَلِمَتُهُ ألقاها إلى مَرْيَمَ وَروحٌ مِنْهُ .. ﴾ =

فيقول عيسى : لقد اتُّخِذْتُ إلهاً وعُبِّدْتُ مع الله .. وقد غضب ربى اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله .. إن كنتم تريدون الشفاعة حقاً فعليكم بحبيب الله وخاتم الأنبياء(١٢٩) .. عليكم بمحمد فهو صاحب ذلك المقام .. غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر(١٣٠) ..

لم يعد للبشر شفيع عند الله سوى محمد ﷺ .. فيتوجهون إليه وينادون والدموع تسيل من عيونهم كما يفيض العرق من أجسادهم .. يقولون : **يا محمد** .. يا عبد الله ورسوله .. ألا ترى ما نحن فيه ؟ أو لا ترى ما أصابنا من كرب ؟! إنَّا لم نعد نحتمل .. نرجوك أن تشفع لنا عند ربك فأنت خاتم الأنبياء .. أنت حبيب الله .. وقد عصمك من الوقوع فى الذنوب .. لا تخذلنا يا محمد .. لا ترفض الشفاعة لنا عند رب العالمين .. فيقبل محمد أن يكون شفيعاً لهم عند الله .

يصير محمد ﷺ شفيعاً للناس يوم القيامة لأن الله وعده المقام المحمود. حين قال : **﴿ ومن الليلِ فَتَهَجَّدْ به نافلةً لك عَسَىٰ أن يَبْعَثَكَ ربُّكَ مَقاماً محموداً ﴾**(١٣١) .

= النساء : جزء من آية ١٧١ . كلمته : وُجِدَ بكلمةِ كن بلا أبٍ ونُطْفَةٍ . روحٌ منه : ذو روحٍ من أمرِ رَبِّهِ .

(١٢٩) ﴿ ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ من رجالِكُمْ ولكن رسولَ اللهِ وخاتَمَ النبيينَ وكانَ اللهُ بِكلِّ شئٍ عليماً ﴾ الأحزاب : ٤٠ .

(١٣٠) ﴿ إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفرَ لك اللهُ ما تقدمَ من ذنبِكَ وما تأخَّرَ ويُتِمَّ نعمتَهُ عليكَ وَيهْدِيَكَ صراطاً مستقيماً ، وينصُرَكَ اللهُ نصراً عزيزاً ﴾ الفتح : ١ : ٣ . فتحاً مبيناً : هو صلح الحديبية عام ٦ هـ ، غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر : كناية عن عصمته من الوقوع فى الذنوب .

(١٣١) الاسراء : ٧٩ . فتهجد : التهجد : الصلاة ليلاً بعد الاستيقاظ . أى الاستيقاظ فى منتصف الليل من أجل الصلاة . نافلة لك : فريضة زائدة خاصة بك . مقاماً محموداً : مقام الشفاعة العظمى : مقاماً يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى .

– قال البخارى حدثنا على بن عياش حدثنا شعيب بن أبى حمزة عن محمد بن المتكدر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة =

وليس معنى ذلك أن الشفاعة قاصرة على محمد عليه الصلاة والسلام بل أن سائر الأنبياء عليهم السلام أجمعين لهم شفاعات .. وإنما اختص محمد ﷺ وحده بالمبادرة بالشفاعة فكانت له تلك الشفاعة الأولى العظمى كما ستكون له شفاعات أخرى بعد ذلك بإذن الله .

فقد قال للناس فى الدنيا : « **لكل نبى دعوةٌ مستجابة يدعو بها ، وأريدُ أن أختبئ دعوتى شفاعةً لأمتى فى الآخرة** »[١٣٢] .

لما رفض كل نبى الشفاعة .. رفضها بكل تأدب ودل البشر على النبى الذى يليه بمنتهى التقدير والاحترام .. والأنبياء معصومون من الأخطاء لكنهم بشر فما ذكره كل منهم من زلات باعتبارها خطايا من وجهة نظره كنبى كان قمة التواضع النبوى الشريف .. وقمة الرقى فى المشاعر وصحوة الضمير .. فكلما كان العبد أعرف بربه وأقرب إليه كان أكثر حباً وخشوعاً وأشد خوفاً ورهبة له من غيره .. فرهبة الأنبياء فى ذلك الموقف كانت إشفاقاً من لحظة الوقوف بين يدى الملك القدوس .. أما خوف سائر البشر فكان قاصراً على اللحظة العصيبة التى يعيشونها وقد سلطها عليهم المنتقم الجبار ! فأين نحن من هؤلاء الأنبياء ؟!

= القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته . حلت له شفاعتى يوم القيامة » . انفر به دون مسلم . الوسيلة : هى أعلى منزلة فى الجنة .

– وفى صحيح مسلم عن محمد بن سلمة عن ابن وهب عن حيوة وسعيد بن أبى أيوب وغيرهما عن كعب بن علقمة عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أنه سمع النبى ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علىّ فإنه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً . ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة . لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله . وأرجو أن أكون أنا هو . فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » .

(١٣٢) روى البخارى حدثنا إسماعيل قال حدثنى مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الحديث » .

كم من إنسان على سطح الأرض شرب الخمر وأكل الخنزير وغيره مما حرم الله دون أن يستحى منه عز وجل ؟! لكن آدم أبو البشر .. العارف بالله أكل مرة من شجرة حرمها الله ثم ندم وتاب حتى غفر له ربه ومع ذلك فهو لا يزال يستحى منه سبحانه وتعالى .

كم من إنسان على وجه الأرض مات له عزيز من أهله فجزع أشد الجزع وسأل الله بغير علم وكأنه يلقى عليه تعالى اللوم والعياذ بالله !! أما نوح فعندما مات ابنه سأل ربه على سبيل الاستفسار ثم ندم واستغفر حتى غفر له العفو التواب ومع ذلك فهو لا يزال يستحى من لحظة لقائه عز وجل .

كم من البشر يكذبون فى اليوم عشرات المرات بدعوى أنه كذب أبيض ولم يحرك ذلك من ضميرهم شيئاً !! وهذا إبراهيم لم يكذب ولم يأت حتى بصورة كذب لكنه يستحى من لقاء ربه وقد اتخذه خليلاً .

كم من طبيب فى العالم تسبب فى موت مريض دون قصد !! وكم من سائق على مر الأزمان قتل عابراً فى طريقه بغير عمد ! وكم من مهندس أو مقاول أو جندى أو حاكم وغيرهم وغيرهم تسبب فى قتل أبرياء بشكل مباشر أو غير مباشر عن غير عمد ! كم منهم حاول التكفير عن ذنبه !! وكم منهم فكر فى لحظة لقاء ربه !! لكن موسى الذى قتل ظالماً دون قصد للدفاع عن مظلوم ندم واستغفر حتى غفر له ربه ومع ذلك فهو لا يزال يشفق على نفسه ويستحى من لحظة مواجهته سبحانه وتعالى .

كم من البشر فى مختلف بقاع الأرض وعلى مر الأزمان والعصور ارتكب الذنوب والخطايا التى حرمها الله ولم يفكر فى الرهبة التى تحتويه لحظة وقوفه بين يدى ربه ! أين نحن من هؤلاء الأنبياء الذين استحقوا أعلى درجات التكريم والنعيم ؟! فالأنبياء هم خير خلق الله .. ﴿ **والذين آمنوا باللهِ وَرُسُلِهِ ولم**

يفرقوا بينَ أحدٍ منهم أولئك سوف يوتيهِمْ أجورَهُمْ وكان اللهُ غفوراً رحيماً ﴾[١٣٣] .

أرض المعاد :

يساق العباد إلى أرض بيضاء كالفضة .. لم يُسفك عليها دم ولم يرتكب فيها خطيئة .. لم يُعصَ الله عليها أبداً .. إنها أرض ليس فيها جبال أو تلال .. لا يوجد بها بحار ولا وهاد .. إنها أرض مستوية لا علو فيها ولا انخفاض .. مكشوفة عارية لا ساتر عليها ولا حائل .. لا سبيل فيها إلى الفرار أو الاختفاء . ﴿ يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماواتُ وبرزوا للهِ الواحدِ القهارِ ﴾[١٣٤] .

يتمكن الرعب من قلوب البشر .. لقد تَرَكوا دنيا الأسباب .. وها قد آتتهم الآخرة .. فى كل لحظة يفجأهم موقف جديد .. بشكل مذهل رهيب لا علاقة له بأسباب الدنيا التى أَلِفُوهَا .. إنهم يسيرون .. يسيرون فى ذهول الحيارى المقهورين .. يترنحون يميناً ويساراً وكأنهم سُكارى .. ﴿ ... وَتَرَى الناسَ سُكارىَ وما هم بِسُكَارى ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ ﴾[١٣٥] .

وتضيع الأنساب .. لم يعد الإنسان يستمع إلى صرخة ولده أو إستغاثة

---

(١٣٣) النساء : ١٥٢ .

(١٣٤) إبراهيم : ٤٨ .

ثبت فى الصحيحين من حديث أبى حازم عن سهل بن سعيد عن النبى ﷺ أنه قال : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس فيها معلم لأحد » . عفراء : ليست ناصعة البياض .

النقى : الخبز الأبيض : النقى عن القشر والنخالة . معلم : لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر .

قد تخلق الأرض الجديدة المسماة بالساهرة فى الفترة ما بين نفختى الصعق والبعث ثم يساق إليها العباد بعد نفخة البعث . والله أعلم .

فى تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٤٤ قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن كعب فى قوله ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ قال : تصير السماوات جنانا ويصير مكان البحر ناراً وتبدل الأرض غيرها . (والله أعلم) .

(١٣٥) الحج : جزء من آية ٢ .

أخيه .. لم يعد قلبه يرق لأنين أمه أو روحه تهفو لرؤية أبيه .. لم يهزه الشوق للقاء زوجه بعد كل هذا الفراق الطويل .. لم يعد أمامه سوى الفرار منهم جميعاً بذاته .. فيكفيه ما هو فيه من أهوال .. ويدور فى ذهنه تساؤل حائر : كيف يتسنى لى الخلاص من ذلك الهول العظيم ؟ متى ينتهى يوم القيامة ؟ أما لذلك اليوم العصيب من نهاية ؟!

﴿ يومَ يَفِرُّ المرءُ من أخيه ، وأُمِّهِ وأبيه ، وصاحِبَتِهِ وبنيه ، لكل امرِئٍ منهمْ يومَئِذٍ شأنٌ يغنيهِ ﴾(١٣٦) .

روى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « **يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : ركبانا ومشاة وعلى وجوههم** » فقال رجل : يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟! قال : « **الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم** » .

وفى الصحيحين من حديث أنس أن رجلاً قال : يا نبى الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه ؟!

قال : « **أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادراً أن يمشيه على وجهه يوم القيامة** » !

يسير الكفار على أرض الحشر يوم القيامة على وجوههم وبطونهم كالحيات .. وفى وسط الزحام تطأهم أقدام شتى المخلوقات .. يشتد الألم والصراخ .. ولا سبيل إلى الخلاص أو حتى الموت .

---

(١٣٦) عَبَسَ : ٣٤ : ٣٧ .

﴿ الذين يُحشَرُونَ على وُجُوهِهِمْ إلى جَهَنَّمَ أولئك شَرٌ مكاناً وأَضَلُّ سبيلاً ﴾(١٣٧) .

حوار بين المنافقين والمؤمنين :

ويعم المكان ظلام حالك .. يتخبط ذلك الحشد الهائل من مخلوقات الله تعالى .. يرتطم بعضهم ببعض من شدة الظلمة والزحام .. انه هول .. هول عظيم .. لكن ثمة نور يفيض بين أيدى المؤمنين وعن أيمانهم .. ها هو يضئ لكل منهم طريقه بقدر حسناته التى قدمها فى الدنيا .. يقيه شر الظلمة .. الفزع .. والزحام .. يهديه إلى طريق الأمان .. إنها رحمة عظمى من رحمات الله جل جلاله التى تحيط بعباده الصالحين فى كل موقف من مواقف ذلك اليوم العظيم ..

﴿ يومَ تَرىَ المؤمنينَ والمؤمناتِ يسعى نورُهُم بينَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانِهِم ... ﴾(١٣٨)

ويحيط بهم التكريم بقدر أعمالهم الطيبة .. تنالهم البشرى بين الحين والآخر .. نداءات تعلو .. أصوات تدوى وتقول : **﴿ ... بشراكُمُ اليومَ جناتٌ تجرى من تَحْتِهَا الأنهارُ خالدينَ فيها ذلك هو الفوزُ العظيمُ ﴾**(١٣٩) .

يسمع المنافقون تلك البشرى التى لا تخصهم .. يرون نور المؤمنين لكنهم لا يستضيئون به .. يحاولون اللحاق بهم علَّهم يقتبسون شيئاً من نورهم فى ذلك اليوم الرعيب .. **﴿ يومَ يقولُ المنافقونَ والمنافقاتُ للذين آمنوا : انظُرُونَا نَقْتَبِسْ من نورِكُمْ .. ﴾**(١٤٠) .. انتظرونا كى نستضئ بنوركم .

---

(١٣٧) الفرقان : ٣٤ .
﴿ أَفَمَن يمشى مُكِبّاً على وجهِهِ أهدى أَمَّن يمشى سَوِيّاً على صراطٍ مستقيمٍ ﴾ : الملك : ٢٢ . مُكِبّاً على وجهه : ساقطا عليه لا يأمن العثور . يمشى سَوِيّاً : مستويا منتصبا سالماً من العثور (مثل للمشركِ والمُوَحِّدِ) .

(١٣٨) الحديد : جزء من آية ١٢ .

(١٣٩) الحديد : جزء من آية ١٢ .

(١٤٠) الحديد : جزء من آية ١٣ . انْظُرُونَا: انتظرونا . نقتبس : نُصِبْ ونأخذ ونستضئ .

وإذا بصوت مجهول .. صوت قوى يسخر بهم ويقول : ارجعوا وراءكم .. عودوا إلى الدنيا .. إلى أعمالكم .. فالنور لا يُلْتَمَسُ إلا من هناك .. فزع المنافقون .. رددوا فى ذهول : نرجع وراءنا ؟! إلى أعمالنا ؟! كيف ؟! ولماذا ؟! لنلتمس نوراً ؟!

لما ﴿ ... **قِيلَ ارْجِعُوا وراءَكم فالتمسوا نوراً ..** ﴾(١٤١) .. حاول المنافقون العودة إلى الخلف يتحسسون نوراً لكنهم تحيروا فى ظلمتهم .. وضاعت محاولاتهم سدى .. اختلفت منهم الأقدام وتخبطوا .. فى غمرة تلك الظلمات المعتمة بدأت حقيقتهم تتكشف لهم : لقد كانت أعمالنا فى الدنيا سوداء مظلمة .. أنَّى لنا أن نقتبسٌ منها نوراً اليوم ؟! عشنا دنيانا فى ظلام النفاق والوقيعة بين العباد .. أظهرنا لإخواننا من خلقِ الله نوراً كاذباً واهياً من الإيمان والحب الخادع .. بينما أخفينا فى باطننا .. فى حقيقتنا ظلاماً دامساً معتماً من الحقد والكيد والدسيسة والنفاق .. وها نحن اليوم نجنى ثمار أعمالنا ظلمة وعذاباً .. حسرة وضلالاً ..

حار المنافقون .. واهتدى المؤمنون .. ﴿ ... **فَضُرِبَ بينَهُم بسُورٍ له بابٌ باطِنُهُ فيه الرحمةُ وظاهِرُهُ من قِبَلِهِ العذابُ** ﴾(١٤٢) .

أحاطت الرحمة بالمؤمنين .. بينما أحاط العذاب بالمنافقين .. ها هى قلوب المنافقين تشتعل ناراً .. تشتد غيظاً وكمداً .. تمتلئ حقداً على المؤمنين : ﴿ **يُنَادُونَهُمْ : أَلَمْ نكن معك ؟!** .. ﴾(١٤٣) .. ألم نكن معكم فى الدنيا ؟! أَوَلم نعش معاً على أرض واحدة ؟! ألم نبعث سوياً فى صعيد واحد ؟! فما بالنا الآن نفترق ؟! أما كنا نصلى ونصوم معكم ؟! أما كنا نحج ونحارب معاً ؟!

---

(١٤١) الحديد : جزء من آية ١٣ .
(١٤٢) الحديد : جزء من آية ١٣ . بسور : حاجز يحجز بين المؤمنين والمنافقين .
(١٤٣) الحديد : جزء من آية ١٤ . ينادونهم : ينادى المنافقون المؤمنين .

رد المؤمنون على الفور .. ﴿ ...**قالوا : بَلَى** .. ﴾[١٤٤] إن كل ما تقولونه حق ﴿ ... **ولكنَّكُمْ فتنتم أنفُسَكُمْ** ... ﴾[١٤٥] .. فتنتموها بلذات الدنيا وشهواتها الزائلة .. ليس هذا فحسب .. بل ﴿ ... **وتربَّصْتُمْ** ... ﴾[١٤٦] .. تربصتم بعباد الله الصالحين .. وتمنيتم لهم الشر ﴿ ... **وارتبتم** ... ﴾[١٤٧] .. كنتم فى شك من أمر البعث بعد الموت .. كنتم فى ريبة من يوم القيامة .. ظننتم أنكم قد لا تلقوا الله وأنه تعالى قد لا يحاسبكم أو يعذبكم .. ليس هذا فقط بل ﴿ ...**وَغَرَّتْكُمُ الأمانِىُّ** .. ﴾[١٤٨] استمعتم إلى وسوسة شياطين الإنس والجن .. خدعتكم أباطيلهم .. وصدقتم وعودهم الزائفة .. تكبرتم ﴿ ... **حتى جاءَ أمرُ اللهِ وَغَرَّكُم باللهِ الغرورُ** ﴾[١٤٩] انتهت حياتكم الدنيا .. وها أنتم اليوم قد بُعِثْتُم من جديد .. تأكدتم تماماً أن وعد الله حق .. وأن غرور الشيطان باطل .. ها أنتم تحاولون الفرار من العذاب .. لكن هيهات .. لن ينفعكم اليوم شئ .. ولن ينقذكم مخلوق من عذاب الخالق .

أجل .. لقد كنتم معنا كما تزعمون .. لكن بأبدانكم فقط .. أما أرواحكم فكانت فى حيرة وشك دائم .. كنتم تكرهونا .. تنافقون وتظهرون أنكم تحبونا .. كنتم تُراءون الناس بصلاتكم وصيامكم وسائر أعمالكم التى بدت فى ظاهرها صالحة .. أما الحقيقة فقد كانت عكس ذلك .. الحقيقة أنكم لم تذكروا الله من قلوبكم يوماً .

---

(١٤٤) الحديد : جزء من آية ١٤ .
(١٤٥) الحديد : جزء من آية ١٤ . فتنتم أنفسكم : محنتموها وأهلكتموها بالنفاق .
(١٤٦) الحديد : جزء من آية ١٤ . تربصتم : انتظرتم بالمؤمنين النوائب .
(١٤٧) الحديد : جزء من آية ١٤ .
(١٤٨) الحديد : جزء من آية ١٤ . غرتكم الأمانى : خدعتكم الأباطيل .
(١٥٠) الحديد : جزء من آية ١٤ . الغرور : الشيطانُ وكلُّ خادع .

﴿ فاليومَ لا يؤخذُ منكم فِدْيَةٌ ولا من الذين كفروا مأواكُمُ النارُ هى مولاكُم وَبِئْسَ المصيرُ ﴾(١٥٠) .

إنتظام العباد وكسوتهم :

واقتربت الساعة الحاسمة .. ساعة الحساب .. بدأت الملائكة فى فرز العباد : إنس .. جن .. نمل .. سمك .. قرود .. الخ .

وانتهت الفوضى .. انتظمت المخلوقات كل فى مكانه طبقاً لدرجة إيمانه .. انتظموا صفاً(١٥١) إيذاناً بالعرض على الجبار .

ويؤتى بكسوة العباد .. يُكسى الأنبياء(١٥٢) أولا بأفخر الثياب ثم من يلونهم تبعاً لدرجات الإيمان .. أما الكفار المجرمون فيكسون بثياب قذرة سوداء .. مصنوعة من مادة شديدة القابلية لإلهاب الأبدان .

﴿ وترىَ المجرمينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فى الأصفادِ ، سَرَابِيلُهُم من قَطِرَانٍ .. ﴾(١٥٣) .

---

(١٥٠) الحديد : ١٥ . هى مولاكم : النار أوْلى بكم . أو ناصِرُكم .

(١٥١) ﴿ .. وترى الأرضَ بارزةً وحشرناهُمْ فلم نغادِرْ منهم أَحَداً ، وعُرِضُوا على رَبِّكَ صَفّاً .. ﴾ . الكهف : جزء من آية ٤٧ ، جزء من آية ٤٨ .

بارزة : ظاهرةً لا يسترها شئ .

(١٥٢) خرج البيهقى بإسناده فى كتاب الأسماء والصفات عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم تُحَشرون حفاة عراة ، وأول من يكسى من الجنة إبراهيم عليه السلام .. يكسى حلة من الجنة ، ويؤتى بكرسى فيطرح عن يمين العرش .. ويؤتى بى فأكسى حلة من الجنة لا يقوم لها البشر .. ثم أوتى بكرسى فيطرح لى على ساق العرش » .. وثياب الجنة تقى المؤمنين مكاره الحشر وأهوال يوم القيامة .

(١٥٣) إبراهيم : ٤٩ ، جزء من آية ٥٠ . مُقَرَّنين : مقروناً بَعْضُهُمْ مع بعض .
الأصفاد : القيود أو الأغلال . سرابيلهم : قمصانهم أو ثيابهم .

﴿ هل ينظرونَ إلَّا أن يأتِيَهُمُ اللهُ فى ظُلَلٍ من الغَمامِ والملائكةُ وقُضِىَ الأمرُ وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأُمورُ ﴾(١٥٤)

العزيز الجبار فى ظلل الغمام والملائكة

لأول مرة يجتمع جميع خلق الله الذين تواجدوا منذ بداية الخليقة حتى قيام الساعة فى زمن واحد وعلى صعيد واحد .. وقفوا فى العراء .. على أرض جديدة شاسعة لا يحدها بصر .. لا جبال فيها ولا بحار .. أرض بارزة لا ساتر لهم فيها ولا حائل يحولهم عن السماء .

وحانت اللحظة الحاسمة .. ثَمَّةَ نور بدأ ينبثق فى سواد الظلام .. أنوار تتلألأ بشتى الألوان .. أصوات تجلجل بأسمى الكلمات .. كلها أصوات وأنوار آتية من بعيد .. من فوق العباد .. ها هى الملائكة وغيرها من مخلوقات السماء التى حُجِبَتْ أسرارها عنَّا فى الدنيا .. إنها فى الآخرة تهبط على أرجاء الأرض بأشكال مختلفة غريبة .. ها قد وصل ملائكة سماء الدنيا إلى الأرض .. فاقت أعدادهم جميع الخلائق .. انتظموا حولهم وأحاطوا بهم .

يا إلهى ! سائر الملائكة يتناثرون من السماوات السبع بعظيم أجسادهم أفواجاً بعد أفواج .. ينحدرون(١٥٥) من سماء تلو أخرى .. تتلألأ أجنحتهم

---

(١٥٤) البقرة : ٢١٠ . ظلل من الغمام : طاقات من السحاب الأبيض الرقيق : ظلل النور العظيم الذى يبهر الأبصار .

(١٥٥) ﴿ ويومَ تَشَقَّقُ السماءُ بالغَمامِ ونُزِّلَ الملائكةُ تنزيلاً ، المُلْكُ يومئذٍ الحَقُّ للرحمنِ وكان =

نورا فى وسط الظلام .. تنتفض أجسادهم رهبة وإجلالاً .. تعلو أصواتهم بالتسبيح والتكبير .. بالتحميد والتهليل[١٥٦] .. ووصل أهل السماء السابعة .. إنهم يزيدون فى العدد عن بلايين المخلوقات التى استقرت على الأرض حتى الآن .. أحاطوا بهم جميعاً وانتظموا صفاً صفاً .

وارتعد أهل الأرض من هول الموقف .. راعهم ضخامة أجسام الملائكة وكثرة أجنحتهم[١٥٧] .. هالتهم أنوارهم[١٥٨] الوهاجة .. تساءل بعضهم فى حيرة : أفيكم ربنا ؟!

فزع الملائكة من ذلك السؤال الساذج .. قالوا بحدة وغضب : سبحان ربنا .. إنه ليس بيننا لكنه آتٍ .

حار العباد .. تلفتوا فى ذهول .. وإذا بسقف العالم يهبط من فوقهم .. يا للهول ! أين المفر ؟! أما من خلاص ؟!

وخشعت الأبصار .. إرتعشت الأبدان .. وانخلعت القلوب .. طارت

= يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ . الفرقان : ٢٥ ، ٢٦ . تَشَقَّقُ السماءُ : تتفتح السموات . بالغمام : بالسحاب الأبيض الرقيق .

(١٥٦) التهليل : قول لا إله إلا الله .

قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا حسين بن عرفة المصرى حدثنا عروة بن مروان الرق حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم بن مالك عن عطاء بن أبى رباح عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فى السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو مَلك راكع ، فإذا كان يوم القيامة .. قالوا جميعا : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنّا لم نشرك بك شيئا » .

(١٥٧) ﴿ الحمدُ لله فاطِرِ السماوات والأرض جاعِلِ الملائكةِ رُسُلاً أُوْلي أجنحةٍ مَّثْنَى وثُلاثَ ورُباعَ يَزِيدُ فى الخَلْقِ ما يشاءُ إن الله على كلّ شئ قديرٌ ﴾ . فاطر : ١ . فاطر : مُبْدِع وَمُخْتَرِع .

(١٥٨) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم » .

من الصدور إلى الحناجر[١٥٩] .. إنه عرش الملك القهار .. العرش العظيم يقترب من الأرض وقد استوى عليه[١٦٠] العزيز الجبار .. إنه جل جلاله يأتى عباده على عرشه فى ظُلَلٍ من الغَمَامِ والملائكة .. ها هو نور باهر عظيم .. طاقات من سحاب رقيق تحجب الخلق عن رؤية الخالق الجليل .. ﴿ ... **ويحملُ عرشَ ربّك فوقَهُمْ يومئذٍ ثمانية** ﴾[١٦١] .. ﴿ **وَتَرَى الملائكةَ حافّينَ من حَوْلِ العرشِ يُسَبّحُونَ بحمدِ ربِهِمْ ..** ﴾[١٦٢] .. الملائكة حملة العرش والكروبيون[١٦٣] يقتربون من فوق العباد .. أصواتهم جميعاً تدوى بقوة وخشوع على مسمع من العالم كله .. أصواتهم تهز الكون بأسره : (سبحان ذى الملك والملكوت .. سبحان ذى العزة والجبروت .. سبحان الحى الذى لا يموت .. سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت .. سبوح قدوس .. رب الملائكة والروح .. سبوح قدوس .. سبحان ربنا الأعلى .. سبحان ذى السلطان والعظمة .. سبحانه سبحانه أبداً أبداً) .

فى يوم الحساب يغضب الله على عباده الأشرار غضباً لن يغضب مثله

---

(١٥٩) ﴿ وَأَنذِرْهُم يومَ الأَزِفَةِ إذِ القلوبُ لَدَى الحناجِرِ كاظمينَ ما للظالمينَ من حميمٍ ولا شفيعٍ يطاعُ ، يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخْفِى الصُّدُورُ ﴾ غافر : ١٨ : ١٩ يومَ الآزِفَةِ : يوم القيامة لقربها . الحناجر : التراق والحلاقيم . كاظمين : ممسكين على الغمِّ الممتلئين منه . حميم : قريب مشفق يهم بهم . خائنة الأعين : النظرة الخائنة إلى مالا يحلُّ .

(١٦٠) ﴿ الرحمنُ على العرشِ استوى ﴾ . طه : ٥ .

(١٦١) ﴿ وانشقت السماءُ فهى يومئذٍ واهيةٌ ، والمَلَكُ على أرجائها ويحملُ عرشَ رَبّكَ فوقَهُمْ يومئذٍ ثمانيةٌ ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافيةٌ ﴾ . الحاقة : ١٦ : ١٨ .

انشقت السماء : تَفَطَّرَتْ وتصدعت من الهول . واهية : ضعيفة متداعية بعد الإحكام . على أرجائها : جوانبها وأطرافِهَا . يومئذ تعرضون : بعد النفخة الثانية للحساب والجزاء . ثمانية : ثمانية ملائكة أو ثمانية صفوف من الملائكة أو غير ذلك والله أعلم .

(١٦٢) ﴿ .. وقُضِىَ بينهُم بالحقِّ وقيلَ الحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾ . الزمر : ٧٥ . حَافِّينَ : مُحْدِقينَ مُحِيطينَ .

(١٦٣) الكروبيون : ملائكة مقربون يعدون من أشرف الملائكة مع حملة العرش وهم أكثر من جميع الخلق .

أبداً .. فيرتجف كل العباد .. يسبح حملة العرش ومن حوله من المقربين بحمده تعالى ثم يستغفرون لعباده المؤمنين الذين تجوز عليهم الرحمة والمغفرة ويدعون لهم ..

﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبّحونَ بحمدِ ربّهِمْ ويؤمنونَ به ويستغفرونَ للذين آمنوا : رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلّ شئٍ رحمةً وعِلْماً فاغفرْ للذين تابوا واتَّبَعُوا سبيلَكَ وقِهِمْ عذابَ الجحيم ، ربَّنَا وأدخِلْهُمْ جناتِ عَدْنٍ التى وعدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ من آبائِهم وأزواجِهِمْ وذُرِيَّاتِهِمْ .. إنك أنت العزيزُ الحكيمُ .. وَقِهِمُ السيئاتِ ومن تقِ السيئَاتِ يَوْمَئِذٍ فقد رَحِمْتَهُ .. وذلك هو الفوزُ العظيمُ ﴾[١٦٤] .

ويُنَادَى على الكفار .. **﴿ إنَّ الذين كفروا ينادَوْنَ : لَمَقْتُ اللهِ أكبرُ من مَقِتكُمْ أنفسَكُمْ إذ تُدْعَوْنَ إلى الإيمانِ فتكفُرُوْنَ ﴾**[١٦٥] .

﴿ وجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صفاً صفاً ﴾[١٦٦] .. وصَل حملة العرش والكروبيون إلى الأرض .. يأمر الله بوضع كرسيه[١٦٧] حيث يشاء من

---

(١٦٤) غافر : ٧ : ٩ . قهم عذاب الجحيم : احفظهم منه . قهم السيئات : قهم المعاصى أو عقوباتها .

(١٦٥) غافر : ١٠ . لمقتُ الله : لبُغضُهُ الشديد وغضبُهُ عليكم .

(١٦٦) الفجر : ٢٢ . والمَلَكُ : ملائكةُ كلّ سماءٍ .

(١٦٧) قال شجاع بن مخلد فى تفسيره : أخبرنا أبو عاصم عن سفيان عن عمار الذهبى عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : سئل النبى ﷺ عن قول الله عز وجل : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السمواتِ والأرضِ ﴾ . قال : « كرسيه موضع قدميه والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل » .

جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود عن رسول الله ﷺ أنه قال : « شأن الله أعظم من ذلك .. إن عرشه على سمواته هكذا » . وأشار بيده مثل القبة .

وفى الحديث الآخر : « ما السموات السبع والأرضون السبع وما بينهن وما فيهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن الكرسى بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة فى تلك الفلاة » . فلاة : صحراء . الكرسى غير العرش .. الكرسى تحت العرش وأصغر منه بكثير .. العرش سقف جميع المخلوقات وأعظمها .. جمع العرش بين العظمة فى الاتساع والعلو والحسن الباهر .. لكن لا يستطيع أن يصفه إنسان =

أرضه .. أما عرشه فلا يزال فوق العباد سقفاً لهم .. عظيم الروعة والاتساع وقد استوى عليه الله إستواءً يليق به تعالى بلا حدود .

﴿ وأشرقت الأرضُ بنورِ رَبّهَا .. ﴾(١٦٨) . ذهل العباد ووقفوا مشدوهين .. لقد تبدد الظلام تماماً .. عمَّ نور قدسي عظيم .. قوى شديد .. نور لا مثيل له .. يا إلهي ! لقد بهر نورك الكريم أبصار المؤمنين .. أعمى أبصار الكافرين .. وانهمرت العيون بالبكاء .. سالت الدموع .. فاضت مشاعر عديدة مختلفة .. انتفض الكافرون هلعاً ورعباً .. ازدادوا ذلة وانكساراً .. وأحس المؤمنون بالرجفة والاضطراب مهابةً ورهبةً وخشوعاً وإجلالاً .. رهيب ! رهيب ذلك الموقف الشديد !

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ، أبصارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾(١٦٩) .. واهتز الوجود كله .. إرتعش من الخوف والوجل .. سرت فيه زلزلة عنيفة .. توجه الوجود إلى ربه مرتعداً خاشعاً .. وراحت الأصوات تنحسر .. وقف بلايين الملائكة .. بلايين الجن .. البشر .. الحيوانات .. الطيور .. الحشرات .. الوحوش .. الزواحف وغيرهم وغيرهم(١٧٠) .. وقفوا جميعاً على تلك الساحة

= أو يتصور شكله فعلمه عند الله .. نور العرش من نور وجه الله الكريم .. للعرش حملة يحملونه والله عز وجل مستوٍ عليه وليس له حد .

(١٦٨) الزمر : جزء من آية ٦٩ .

فى تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٠ : عن عكرمة أنه قال : لو جعل الله نور جميع أبصار الإنس والجن والدواب والطير فى عينى عبد ثم كشف حجابا واحداً من سبعين حجاباً دون الشمس لما استطاع أن ينظر إليها ، ونور الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسى ، ونور الكرسى جزء من سبعين جزءاً من نور العرش ، ونور العرش جزء من سبعين جزءاً من نور الستر ، فانظر ماذا أعطى الله عبده من النور فى عينيه وقت النظر إلى وجه ربه الكريم عيانا ؟ رواه ابن أبى حاتم .

(١٦٩) النازعات : ٨ ، ٩ . واجفة : مضطربة . أو خائفة وجلة . أبصارها خاشعة : ذليلة منكسرة من الفزع .

(١٧٠) ﴿ ...وَتَرَى الأرضَ بارزةً وحشرناهم فلم نغادرْ منهم أحداً ، وعُرِضُوْا على رِبِّكَ صفاً .. لقد جئتُمُونَا كما خلقناكم أولَ مرة بل زَعَمتُمْ أَلَّن نجعل لكم موعداً ﴾ . الكهف : جزء من آية ٤٧ ، ٤٨ . بارزة : ظاهرة لا يسترها شئ . موعدا : وقتا لإنجازنا الوعد بالبعث والجزاء .

الشاسعة فى خشوع وصمت رهيب .. وخيم الجلال على الموقف .. لم يعد هناك نفوذ أو سلطان .. مُلْك أو قوة إلا لله الواحد القهار .. الملك القدوس المهيمن الجبار .

ساد سكون غامر .. ﴿ ... **وخَشَعَتِ الأصواتُ للرحمنِ فلا تسمعُ إلا همساً** ﴾[171] .

---

(171) طه : جزء من آية ١٠٨ . هَمْساً : صوتا خفياً خافتاً .

المـراجـع

المراجع

اسم الكتاب	الكاتب	الناشـر
- القرآن الكريم .		
- تفسير القرآن العظيم .	ابن كثير	المكتبة التجارية الكبرى .
- فى ظلال القرآن .	سيد قطب	دار الشروق
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم	محمد فؤاد عبد الباقى	دار الحديث
- كلمات القرآن - تفسير وبيان	حسنين محمد مخلوف	دار المعارف
- مختار الصحاح	محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى	دار التنوير العربى بيروت - لبنان
- الأحاديث القدسية	جمهورية مصر العربية - وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة القرآن والحديث	
- فتح البارى - بشرح صحيح البخارى	للإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى	دار الريان للتراث
- نهاية البداية والنهاية	الحافظ ابن كثير - تحقيق اسماعيل بن محمد الأنصارى	المكتبة القيمة

تابع المراجع

اسم الكتاب	الكاتب	الناشر
– البداية والنهاية	الحافظ بن كثير	دار الفكر العربى
– إحياء علوم الدين	الإمام أبو حامد الغزالى	دار المعرفة – بيروت – لبنان
– قصص الأنبياء	عبد الوهاب النجار	
– دقائق الأخبار فى ذكر الجنة والنار	للإمام عبد الرحيم بن أحمد القاضى	دار الكتب العلمية بيروت – لبنان
– التوهم	الحارث بن أسد المحاسبى – تحقيق محمد عثمان الخشت	مكتبة القرآن
– يوم الفزع الأكبر	للإمام القرطبى – تحقيق : محمد إبراهيم سليم	مكتبة القرآن
– أهوال القيامة	عبد الملك على الكُلَيِّبْ	دار الكتب السلفية
– كتاب اليوم – معجزة القرآن	محمد متولى الشعراوى	مؤسسة أخبار اليوم
– مسرور ومقرور	أحمد بهجت	المختار الإسلامى
– القيامة– رأى العين	محمد محمود الصواف	دار الاعتصام

الفهرس

رقم الإيداع : ١٦١٩ / ١٩٩٢
الترقيم الدولى : ١ ـ ٠٣٤ ـ ٢٢٠ ـ ٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ ـ شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ـــ ١١٢٣١